خيمة من نايلون

ذكريات طالب في الجامعة الأميركية في بيروت
1973-1965

د. حامد العطية

2023م

خيمة من نايلون

ذكريات طالب في الجامعة الأميركية في بيروت

1965–1973

د. حامد العطية

2023م

السنة الأولى

وضعت حقيبتي على بلاط مطار بيروت، في زمن انفراج. ما بين سيء وأسوأ، سبع سنوات بعد نُذُر حرب أهلية أُخمدت، سنتان قبل هزيمة حَزيران، وثمان قبل الحرب الأهلية. كنت في السابعة عشر من العمر، لم يسبق لي فراق أهلي لأشهر سوى مرة واحدة، للدراسة أيضاً، وكانت من الأمرّ بين شهور حياتي المريرة.

لم يتقدم أحد من الحمالين ليحمل حقيبتي، لاحظوا اهتراءها فافترضوا فقر أو بخل صاحبها أو الاثنين. وازنت بين ارتياحي بوصولها سالمة غير مفككة الأوصال وسترها على ملابسي الداخلية وبين خجلي من حملها فتغلب خجلي. كانت حقيبة والدي العتيقة. بعد انقطاع سفراته الصيفية إلى لبنان استعملها دكة لوضع عدة الحلاقة عليها. تجلب والدتي الماء الساخن والمرآة الصغيرة وآلة الحلاقة اليدوية وأصبع الرغوة والفرشاة، ويجلس أمامها ليحلق لحيته كل صباح، حتى انطبعت على جوانبها

بقع الماء والصابون، تتخللها شعرات شائبة. قبل سنين سطا لصوص على بيتنا في بلدتنا الريفية، وجدوا الخزنة موصدة فأخذوا الحقيبة. استعجلوا في معرفة محتوياتها، ولا بد أنهم صدموا، وازدروا الحقيبة، ولعنوا أصحابها، ففي صباح اليوم التالي عثرنا عليها على سطح المبنى الملحق، ومحتوياتها مبعثرة.

أورثني الحقيبة البالية قسراً، وألبسني بدلة فضفاضة اشتراها من خياط عجوز دُكَّانه مّطل على ساحة حافظ القاضي، بجانب محل مصور الحكام والمشاهير أرشاك، وغير بعيد من صيدلية زيا. كان يزورها كلما قصد بغداد، لشراء دواء، أو لمجرد الحديث مع صاحبها المضياف، وأتذكر وجهه البشوش وبدنه المترهل.

اكتريت سيارة أجرة، وتلوت على سائقها العنوان من قُصاصة ورق، زودني بها شقيقي، كان قد أكمل السنة الثانية في الجامعة نفسها، وتركها مغتاظاً، لأنهم رفضوا تسجيله في كُلْيَة الهندسة، لا بسبب المعدل. قبلوا طالباً آخر بعلامات أقل، لمجرد أنه طالب بعثة، فأضاع سنة

دراسية كاملة، ولم يثن تحيز الجامعة والدي عن قراره بدراستي فيها، ولا تفضيلي البقاء والدراسة في جامعة وطنية، لكن وطني كان وما زال ينفيني ظلماً وبهتاناً.

في الطريق نحو الجامعة ازداد شعوري بالتوتر والغربة، وشاغلت نفسي المكتئبة بالنظر إلى الشريط السريع من مشاهد الأمكنة والبشر. رأيتها من قبل في أفلام وصور وبالعين المجردة أيضاً، فتلك ثاني مرة أفد عليها، وتمنيت ألا تكون مفجعة كالأولى، ومع ذلك يبقى كل شيء فيها غير مألوف ومبهر. مضت سيارة الأجرة عبر الشوارع الأنيقة تحدها صفوف الأشجار، خضرتها نضرة ونظيفة، عكس المتعبة والمتربة التي تركتها ورائي، حتى الأرض الرمادية تبدوا أكثر حيوية. داهم حواسي بريق الألوان ورهبة المكان واللهجة والسحنات الموروثة من غزاة قدامى، وأكدت لي العيون المتفحصة عند مفارق الطرق بأني غريب طارئ، ولم يفارقني هذا الشعور حتى بعد سنين.

دفعت أجرة السيارة وحملت حقيبتي وانحدرت نحو سكن الطلاب

المستجدين. من أسفل يبدو كالنزل التي يشيدها الأمريكيون على جوانب الطرق ليرتاح فيها المسافرون، أو في أطراف المدن ليقصدها الرجال والنساء لقضاء ليالي أو سويعات جنسية، ولا ينقصه عن الأصل سوى حمام سباحة ومكنات بيع الثلج وإعلان بالنيون عن وجود غرف شاغرة وقنوات تليفزيونية. توقعت تصميماً فريداً لا نسخة من نزل رخيصة.

استوقفني عند المدخل شاب نحيل، وجناته مصفرة بسوء التغذية، وملابسه قديمة، ألوانها باهتة. ظننته البواب، وتعمد التوضيح بأنه طالب مكلف بمراقبة المدخل. سلّمته خطاب القبول، فتهلّل وجهه بالترحيب، والسؤال عن أحوال شقيقي، وأكد لي بأنهما صديقان، وينبغي عليه مساعدتي. صعدنا إلى الطابق الرابع، وقادني عبر ممر طويل مكشوف إلى غرفة قميئة، سأتقاسمها مع طالب آخر، حصتي فيها سرير ضيق ومكتب صغير يعلوه رف واحد للكتب ومدخل خلفيّ إلى حمام غربي مشترك لأربع غرف.

دخلت الحمّام لأغتسل، نسخة مصغرة من حمامات المباني العامة،

أربعة من كل صنف، مغاسل ومباول ومراحيض ومقصورات للاستحمام. وقبل الفراغ من الغسل واستطلاع المكان دخل جاري الجنب، تظاهر بغسل يديه، ثم دنا وعرف بنفسه، حجازي أكمل سنة تقوية اللغة الإنجليزية، ومن الباب المقابل دلف أفريقي، طويل ضخم الجثة، هزّ رأسه بتحية فردّيت عليه بمثلها، ثم تناول مشطاً خشبياً ذا أسنان كبيرة، ومشّط به شعره الكث. بعد أيام اختفى المشط فهاج جارنا الأفريقي، وارتفع صوته برطين غير مفهوم، خمنت بأنه اتهمنا بسرقة المشط، من دونه ظّل شعره واقفاً مثل عاقول تعلفه الإبل، حتى بعد ظهور المشط المفاجئ في اليوم التالي لم يهدأ غضبه، وكلما التقيته في الحمام المشترك أو عند الدرج تمتم باتجاهي بكلمات، ظنتها شتائم بذيئة، لم استحقها ولم أكترث له. جارنا في الزاوية البعيدة، فلسطيني من الشتات، أسرني بأنه تآمر هو والحجازي على إخفاء المشط، لانزعاجهم من صخب الأفريقي، فشكوت له نظراته الغاضبة ورطانته العدائية فضحك.

في صباح اليوم التالي قصدت إدارة التسجيل. أبلغت بموعد اختبار

اللغة الإنجليزية، أول عقبة كأداء للطلاب الجدد. أخفق فيها شقيقي فاضطر كارهاً قضاء ست أشهر في برنامج التقوية، سبب آخر لسخطه على إدارة الجامعة، لم يتوقع ذلك لأنه درس في كُلْيَة بغداد اليسوعية. سبقني إليها بثلاثة أعوام، لذلك تخوفت من الاختبار وتوقعت نتيجة مماثلة. بعد الشرح المقتضب لطريقة الإجابة على بطاقات آلية بدأ الاختبار .ظهرت النتائج بعد يوم أو يومين، نجحت وفشل معظم الناطقين بالعربية. كلما تذكرت النتيجة تجدد سخطي على الطاغية عبد السلام عارف، بسبب درجتي في مادة اللغة الإنجليزية في اختبار الثانوية العامة، توقعت درجة شبه تامة، لكنها لم تزد على أربع أو خمس وسبعين فقط! كنت متيقِّناً بأن المصححين أو من أصدر لهم الأوامر تعمدوا خفض درجاتي حتى لا يحق لي القبول في الكليات المرغوبة، وبسبب طائفية عارف وأعوانه اضطررت للرضوخ لمشيئة والدي والالتحاق بالجامعة في لبنان.

في اليوم التالي حضر زميلي في غرفة السكن، يمني مبتعث على حساب برنامج مساعدات أمريكي. زجّوه والعشرات من مواطنيه في مدرسة

جبلية، قضوا فيها سنة تحضيرية كاملة قبل الجامعة. بعد تحية مقتضبة وتعارف رسمي تهاوى على السرير. أول وهلة فرحت به زميلاً في الغرفة، وكنت متخوفاً من عدواني صاخب مثل جارنا الأفريقي، وبدا لي مثل قروي من قبيلتي، بل وجدت شبهاً محيراً بينه وبين أولاد خالي، لعلها جينات جدنا المشترك قحطان. تبدد ارتياحي من زميلي بعد أيام. قضى معظم ساعات النهار في السرير. أتركه مستغرقاً في نوم أشبه بالغيبوبة معظم الأيام. أول صحوه إحضار الشاي على موقد كهربائي صغير، خلافاً لتعليمات السكن الصارمة. أرفض دعوته لقدح شاي، فيحمله ويخرج إلى الممر، يستند إلى الحاجز المعدني، ويثبت نظره على الأفق وراء شجرات دائمة الخضرة سامقة ومباني حجرية أنيقة بالرغْم من قدمها، لعله الحنين يسافر بعقله إلى ربوع بلاده. أحمل كتبي لأذهب للمحاضرات أو المكتبة، وأعود بعد الظهيرة بعد دروس مملة ووجبة غداء غير شهية، أدفع ثمنها ببطاقات تفرض علينا الجامعة شراءها لئلا يكسد مطعمها. تعلمت بعد أشهر بيع البطاقات برخص إلى مطعم في شارع جان دارك. أجد زميلي

في الغرفة شخصاً مختلفاً، وقد انفرجت أساريره المكتئبة عن ابتسامة هزيلة وبريق خافت في العينين الغائرتين بسبب سوء تغذية مزمن أو ديدان معوية كالتي تطفلت على جسدي لسنين في القرية، ثم اكتشفت في أحد الأيام سر التحولات بين الصباح وبعد الظهر، غاب أستاذ إحدى المواد، فعدت للغرفة مبكراً، وجدت عنده زائرين، أحدهما جلس على سريري، وزميلي واقف قرب الموقد الكهربائي. سلمت ودخلت .سمّرته المفاجأة، فلم يتحرك أو يعرفني على زواره، وظل كفّه غائصاً في كيس قماشي رمادي، ذكرني بكيس خالي الطحان، سوى أن ذاك كان أبيضاً بلون الطحين، ويضع فيه دراهمه، كلما زرته يهبني درهماً، في زمن كان الدرهم يكفي عيش كفاف ليوم وليلة، وابتسامته الحانية تساوي دراهم الدنيا كلها. كفُّ رفيق الغرفة مدفونة في كيسه المتدلي، وعيناه معلقتان على وجهي، وشعرت بأنهم تضايقوا من عودتي غير المتوقعة، ولم أدرك السبب، وأخيراً أخرج يده من الكيس وكأنها فأر صغير، وفي قبضته حفنة أوراق خضراء، دسّها على عجل في إبريق الشاي، وسألني إن كنت

سأشرب الشاي معهم، وضحك الثلاثة، وأدركت حينئذ سر التحولات.

بعد ذلك لم يحرص على إخفاء طقوس تحضير الشاي، فلا يكاد يمرّ يوم من دون احتسائه أكواباً من الشاي الممزوج بالقات، وغالباً مع آخرين، يجلسون على سريره ويتهامسون. تبين لي من حديثهم أنهم بعثيون معارضون لحكومة بلادهم. أرغمني على الدراسة في المكتبة حتى ساعة إغلاقها، وأصابني رقاده الطويل بشيء من الكآبة، وطيلة الفصل الأول تخوفت من مداهمة مفاجئة لحراس الجامعة أو شرطة مخفر حبيش القريب، واقتيادي للتحقيق، وتخيلت عدد الصفعات والركلات وكلمات الشتائم البذيئة التي ستنهال علي، وهل سيقتنعون ببراءتي؟ لم يأت الخلاص قبل نهاية الفصل، طردته الجامعة لفشله في كافة المواد، ومثله معظم الطلاب اليمنيين. ظلمهم خبثاء المعونة الأمريكية وسماسرة الشهادات، وكأن هدفهم الوحيد إحباط معنوياتهم وتحطيم مستقبلهم الدراسي.

لا تكتمل طقوس بدء العام الدراسي من دون زيارة لمزرعة الجامعة في

البقاع. اخترت مقعداً بعيداً عن طالب يداعب طبلة. انضمت إليه جوقة من أصوات نشاز، ولم يتوقفوا عن الغناء والتطبيل حتى الوصول .تعرفت فيها إلى عراقيين، كردي وأرمني. اختطف الكردي الفظ طعام الأرمني وهرول مبتعداً. أبطأ العرج الأرمني عن اللحاق به. تركتهما وجلت في المكان، فلم أر زرعاً ولا ماشية. انتخبوا ملكة جمال المزرعة، حسناء إيرانية، عيناها واسعتان سوداوان بلون القير، وأنفها صغير دون عملية تجميل، وبشرتها بلون قشدة حليب الجاموس. حسدوها فمرضت، هزل جسمها الضّامر أصلاً، وبرزت عظام وجهها، ثم اختفت، وأشاعوا بأنها توفيت فجأة. صبّرت نفسي على الملل حتى العودة من المزرعة إلى السكن الكئيب.

دبت الحياة في السكن بحضور المزيد من الطلاب، وفي الجنب حل حجازي آخر من جَدَّة، عرفني بعد أيام على طالب مستجد، من نفس مدينته، طردته جامعة في أمريكا. وقفنا معًا على الشرفة المطلّة على مدخل المبنى والدرج المفضي إلى شاطئ البحر. لفت نظري نحوله الشديد وسحنة

وجهه الغامقة وجحوظ عينيه، خمنتها أعراضاً مرضية، وجدت شبهاً ملفتاً بينه وبين المغني الأمريكي الزنجي سامي ديفيس جونيور. ثرثر عن مغامراته الشبابية، وغير القابلة للتصديق، حتى مرور ثلّة من طالبات المدرسة الأمريكية الخاصة، للوصول إليها تنزل عشرات الدرجات حتى شارع ساحل البحر، ولا تقبل سوى بنات الأمريكيين والدبلوماسيين الأجانب. نادى عليهن من الشرفة، فاستجابت إحداهن بالتلويح بيدها. لديه وصفة مجربة لاجتذاب المراهقات الأمريكيات: اجلس على قارعة الطريق وافتح يديك متضرعاً وستعطف عليك إحداهن، وأردفها بضحكة مخنثة، لعله رأى في ملامحي تكذيب لزعمه، ولو فعل كما نصحني لربما عدوه متسولاً، ولم أصدق من كلامه سوى عادة السفر هو وأصحابه السعوديين مراراً إلى أسمرة الأريترية لأن عاهراتها جميلات ورخيصات الثمن.

كل شيء جديد وغريب، يتطلب كسر المألوف القديم وإحلال عادات جديدة محله، استعمال الحمام الغربي من دون غسل، تعويد الحواس

على اللهجة والأطعمة اللبنانية، مقاومة رهاب الخروج إلى الشارع واحتمال التيه، متاعب القروي في زيارة المدينة كثيرة، وما أصعبها عندما تكون المدينة بيروت.

يقال أن المرء يعرف من أصدقائه ورفاقه، وهكذا عرفت جانباً مخفياً من شقيقي الوحيد. أولهم كان الفلسطيني الواقف عند مدخل السكن الداخلي، شخصيته مهزوزة، فاتخذوه هدفاً سهلاً للتندر، ربما أيضاً بسبب قصر قامته ونحوله الشديد، وسمعت إحدى سخرياتهم من شقيقي مراراً حتى السأم. بعد التخرج سافر إلى أمريكا وتجنس. كنت متوجهاً لرؤية الثاني في سكن (الرجال الجدد)، هكذا سموه، أما سكن الطلاب المستجدين فقد أطلقوا عليه اسم أحد رؤساء الجامعة السابقين. أهم ميزة لسكن الكبار مرحاض شرقي مع أنبوب ماء للغسل بعد الاستعمال. كان الحجازي واقفاً على شرفة غرفته في الطابق الثاني، وبأعلى صوته سألني إن كنت الأخ المنتظر، وقبل أن أجيبه نزل لاستقبالي، ليس بالترحاب وإنما بسيل من الشتائم والسباب المقذع الذي يرددها سوقة بغداد، غالباً

ما تؤدي إلى عراك بالأيدي أو ما أخطر، لكنها لم تتناسق مع ابتسامة عريضة على وجهه البيضويّ الأسمر:

-أخوك علمني هذا السباب!

بطلب منه بالتأكيد. طبعه استفزازي مشاكس، لسبب ما في شخصيته، لم يتخلص منه في الكبر، صفة عرضته لصدامات مع آخرين. تقول عليه أحدهم بأنه مخابراتي مثل أبيه. كان من أشراف الحجاز، وكثير من الحجازيين يدعون ذلك. سألته مرة لم خان قائد قوات الأشراف وانضم لجيش ابن سعود، أجابني: لأنهم اغتصبوا ابنه الوسيم.

بدأت الدراسة، ومكاني المفضل مقعد خلفي. في مادة اللغة العربية استمعت لمحاضرات مملّة عن الفلسفة الإشراقية. لم أستفد منها شيئاً، كنت قارئاً نهماً قبل الجامعة. أقصد بائعي الكتب والمجلات المستعملة في سوق السراي بالرصافة مرة في الأسبوع، وأرجع منه وقد خلا جيبي من المصروف، والباهظ ثمنه أستعيره من مكتبة كُلْيَة بغداد. كنت الوحيد الذي سمح له مدير المكتبة الأبُّ اليسوعي بدخول مخزن الكتب. أشاع

الطلاب بأنه كان ملاكماً قبل انضمامه للكهنوت، أو لعلهم استنتجوا ذلك من اعوجاج فكه السفليّ، وتكهنوا رجماً بالغيب بأنه قتل ملاكماً في الحُلْبَة فترهبن ليكفّر عن جريرته. انكببت على قراءة كتب التاريخ والأدب والفلسفة. لم أفهم الكثير من الفلسفة ولا حفظت الشعر لضعف ذاكرتي، لكن محصلتي الثقافية في سنوات الجامعة ضئيلة بالمقارنة. أستاذ الفلسفة في الجامعة شاعر. اشتريت ديوانه فلم استسغ شعره الطيني. في أول درس حتى قبل التعريف بنفسه، وأشك بأن معظم طلابه سمعوا به من قبل، وقف أمامنا وعلى شفتيه الضامرتين ابتسامة مصطنعة ورذاذ مرض الربو يتطاير من بينهما وقال:

-معلماتي لماذا تجلسن آخر الصف؟ تفضلن بالجلوس في الصف الأمامي!

قالها باللغة اللبنانية العامية. أخلى الطلاب مقاعدهم في الصف الأمامي لتجلس عليها الطالبات، المليحات قلة بينهن. غالبت ابتسامة خبيثة، وهل هنالك سبب آخر لطلبه سوى التفرج على سيقانهن المكشوفة؟ كان زمن الثياب القصيرة والسراويل القصيرة "الساخنة"، وطيلة الفصل أشبع

أستاذ الفلسفة والعربية ناظريه بمناظر الأفخاذ البضّة، ولعله شاهد أكثر من ذلك كلما غيرت احداهن جلستها، لتضع فخذاً على فخذ، متعمدة أو غير متعمدة. حاضر ماشياً لا واقفاً، يذرع صدر الصف، يبدأ بمعلومة ثم يقفز إلى غيرها، ليس بسبب العشرة سيقان المكشوفة وما بينها الماثلة أمامه، بل هي من أعراض شخصيته المضطربة، وقصائده أيضاً مفككة وقلقة. لا يشجع طلابه على المشاركة، ولا يكترث لرأيك إلا إذا كنت ترتدي تنورة قصيرة، وبينما تجهم في وجوهنا ابتسم لزميلاتنا "معلماته".

قبل الامتحان النهائي ظهرت دمّلة كبيرة على مؤخرتي، أخجلتني أكثر مما ألمتني بالرغم من شدة الوجع وصعوبة الجلوس، واضطرّتني بعد تردد لقصد مستوصف الطلاب، وبعد الفحص أخبرني الطبيب بأن السبب هو استعمالي المراحيض الملوّثة في السكن الداخلي، فلعنت الجامعة والحكومة العراقية والمراحيض الغربية والطلاب الوسخين الذين أخرجوا نفايات أجسادهم على مقاعد المراحيض وسخافات عقولهم المراهقة المدونة على جدرانها رسماً ونثراً حتى أبيات شعر إباحية، وبعضها لوطية،

تبعث على الغثيان، قيل أنها من نظم إبراهيم طوقان.

سألني طبيب المستوصف اللبناني إن كان فلان قريباً لي، فأجبته بأنه ابن عمي، درس وتخرج من الجامعة قبل عدة سنين، فأخبرني بأنهما ولأننا نشترك في نفس اسم العائلة جلسا في مقعدين متجاورين في الكنيسة، وتعجبت من حضور قريبي المسلم الكنيسة، حتى تبين لي بأن حضور عظة الأحد فرض على جميع الطلاب، اعترضوا عليه في السابق فردت عليهم إدارة الجامعة بأنها مؤسسة تبشيرية! وبعد حين قررت إلغاءه، واستبدلوه بثلاثة اجتماعات مفروضة لسماع التراتيل الدينية في الأسبوع، بضمنها يوم الجمعة، على وقع أنغام الأرغون. خلال دراسته في الجامعة تمرّد ابن عمي على أبيه الملكي حتى النخاع، وانضم إلى حركة القوميين العرب، وعندما استولى البعثيون على الحكم تعاون معهم، فأدنوه ثم انقلب عليهم، وبعد احتلال العراق صار ليبرالياً، لذلك لا أظنه سخط على الجامعة لأنها أجبرته على حضور طقوس الكنيسة.

قرّر الطبيب بقاءي في المستوصف لحين زوال الورم. مرت أيام زارني

فيها زملاء، وأسمعوني سخرياتهم المتوقعة. أتذكر ممرض المستوصف، فيه شبه كبير من أستاذ اللغة العربية والفلسفة، لعلهما من منطقة واحدة، والولاءات في لبنان للطائفة والمنطقة حتى في الجامعة. أحضر لي قنينة عصير ليمون كل يوم، واستوفى ثمنها الباهظ، ولم أعترض مخافة اغاضته، له مقعد في الشرفة، لتشميس صلعته بعد دهنها بزيت الزيتون. أدعى أنها خير وصفة لإنبات الشعر، شاهدته بعد سنين، وكانت صلعته كما هي.

بعد زوال الدملة عدت إلى غرفتي في السكن، التي خلت من زميلي اليمني المفصول من الجامعة، وبدأت بالتحضير لاختباري الفلسفة والكيمياء. نصحني أحدهم بزيارة المكتبة، والبحث عن أسئلة الاختبارات النهائية لمادة الفلسفة لسنوات سابقة، لأن أستاذها الشاعر اعتاد تكرار نفس الأسئلة كل عام. ظننته يبالغ، لأن من غير المعقول أن يكون كسولاً لهذه الدرجة. قصدت المكتبة احتياطاً واستخرجت الأسئلة وأعددت لها إجابات مثلى، وبالفعل كانت أسئلة الاختبار من ضمنها، وخرجت

متيقناً من حصولي على درجة تامة، لكن الشاعر المتلذّذ بأفخاذ طالباته خيب أملي، أعطاني نفس العلامة السابقة، لأنه يقيناً تكاسل عن تصحيح ورقة الاختبار، وعندما عرفت بخبر انتحاره بعد عقدين من الزمن كذّبت الرواية الشائعة حولها، لأنها ناقضت صورته في ذهني، ومثله لا يزهق نفسه من أجل قضية، وقد سبقتها محاولات فاشلة، وهل الانتحار تعبير احتجاجي أم انهزامي؟ ولم يشفع له عندي هجاءه الجامعة التي أعطته كل شيء الشهادة والبعثة والوظيفة وأفخاذ الصبايا وتغاضت عن سلوكه المعيب وكسله الأكاديمي.

تخلفت عن الاختبار النهائي لمادة الكيمياء أيضاً، أستاذها ألماني، كل ما ينقصه مونوكل لتكتمل الصورة النموذجية، في الشكل لا المضمون ربما. أسكنوه في الطابق العلوي من مبنى الطلاب المستجدين، وجعلوه مسؤولاً عنا، استقبلنا هو وزوجته في شقّته بحفاوة زائدة، وأنّبني ضميري لرؤيتها بعد حين. كنت أزور زميلاً في سكن الطلاب الكبار، ومن شرفته أشار إلى شَقَّة الأستاذ الألماني، حمامها مطلّ على الساحة الفاصلة بين

المسكنين وملعب لكرة القدم، ومن خلال اللوح الزجاجي الممتد من السقف إلى الأرضية يمكن رؤية زوجة الأستاذ الألماني وهي تغتسل عارية، ولولا الزجاج المموه قليلاً لكان المنظر فاضحاً.

في الفصل الثاني درس فلسفة ولغة عربية ثان، أستاذ المادة خليجي أعرج، وكان من قبل سوي العقل والضمير، ثم أصابهما العرج أيضاً، فتحركتا من المشرق إلى المغرب، فكافأته الجامعة بوظيفة مدرس. في سنوات المرحلة الثانوية قرأت العديد من كتب الفلسفة الإسلامية وجانباً من الغربية، واشتريت كتاب الأمير لمكيافلي ظناً مني بأنه رواية مغامرات، ولتعويض ثمنه المقتطع من مصروفي الأسبوعي قرأت جانباً منه. الأستاذ المزورّ عن صراط نصرة المضطهدين متفلسف، فأردت التفلسف عليه فسألته يوماً:

ألا ترى بأن تسمية الخالق قد تكون ضرباً من الشرك؟

حار في الإجابة فتهرب منها بكلمة: أحسنت.

مؤخراً مرض، فزاره في المستشفى الملك الطاغية، فازددت ازدراءاً له

وللكثيرين من المعارضين أمثاله الذين سأموا أو تعبوا فاسترحموا الطاغية ليعفوا عنهم ويسمح بعودتهم إلى جزيرتهم البائسة.

أخبرني صديقي الكويتي بانه جلس ورائي في درس الأعرج، وكلما سألت أو أجبت سخر مني مع نفسه:

– هذا يتفلسف.

صدق.

لا أتذكر وجوه زملائي في ذلك الدرس المملّ، سوى طالبة كويتية أيضاً، سمراء .ملابسها ثمينة وفاخرة وألوانها فاقعة، تدلّ على ثراء عائلتها، وعطورها فواحة مثل كل الطالبات من بلدها. ترمقني بنظرات وابتسامات لكن خجلي تجاهلها، واكتفيت بالردّ على تحياتها الصباحية. ربّتني والدتي على الخجل ووالدي على الخوف، وتسوست أسناني الأمامية وسقطت بفعل مكيدة زوجة ثانية من زوجات والدي الأربعة، فصرت أدرداً أتجنب الضحك لئلا يسخروا مني فأخجل، وبعد تركيب أسنان اصطناعية تفاديت التشاجر خوفاً من تكسرها، ولما كبرت

تبين لي أن ما لا يخيفني في وطني يخجلني، فاستوطنا نفسي منذ الصغر حتى اليوم، وأنا مصداق قول ثوماس هوبس: ولدت أمي تؤمين أنا والخوف، لذلك لو قرأت زميلتي الكويتية الودودة هذا الكتاب فلتعلم بأني أعتذر لها عن إعراضي وجفائي المصطنعين فقد كنت أدراي بهما خجلي.

لم أتخلف عن درس السباحة، مادة مفروضة أخرى. ثابرت عليها، للتغلب على رهاب الماء، أصبت به في الصغر لكثرة الأطفال الغرقى في نهر قريتي، وتحذيرات والدتي المتكّررة من الاقتراب من النهر، وقصصها حول سعالي الماء المتربّصة، وخذلني معلم السباحة اللبناني. في مخيلتي أراه متسنماً صخرة عالية، امتطاها كأنها عرش فينيقي. راقبني بلؤم وتشفي وأنا ألبط وأعبّ الماء وأشرف على الغرق، فلم يحرك الخبيث ساكناً، مكتفياً بإصدار أوامره وملاحظاته الهازئة من فوق صخرته العالية. تبين بأنه لا يختلف عن الكثيرين من مواطنيه، فلكلّ واحد منهم قمة شاهقة متخيلة في عقله يبصر منها غيره بتعالي وازدراء. تركني ألبط في

جرف البحر، حتى امتلاء بطني وانسداد خياشيمي بالماء المالح. لكن عيوني المتقرحة بملح المتوسط لم تنس حتى اليوم ملامح الخبث والقسوة والعجرفة المطبوعة على وجهه. استمرأ توبيخي، وهددني بالاخفاق لو خالفت أوامره. بخلت إدارة الجامعة بحمام سباحة واختارت لتعليم طلابها معلماً خبيثاً وجرفاً صخرياً، مياهه عميقة، وتكسوه الطحالب اللزجة. كان معظم الطلاب حتى الآتين من بلاد الصحراء يتقنون السباحة، ما عداي وثلة قليلة، كلهم أجازهم معلم السباحة اللعين، باستثنائي، أحياناً أظن بأن البعض يمتلؤون حقداً علي من أول نّظرة . أول فشل دراسي في حياتي، أسّس لنظرتي للجامعة. كلما مررت على إدارة الرياضة عند المدخل الرئيس، أقرأ على بابها بحروف كبيرة: علي أن أسعى وليس علي إدراك النجاح، أشك بأنهم سمعوا بقائلها بديع الزمان الهمذاني، ولم يطبقوا حكمته، فقد سعيت كل جهدي وهم أفشلوني لمرض نفوسهم. وبعد سنوات تبين لي أن إدارة الرياضة مجرد واجهة لاستخبارات الجامعة، وفي أدراجها وتحت الأرفف التي صفّت

عليها كؤوس مشتراة لا مكتسبة مِلَفّ سري لكل طالب في الجامعة، وكنت واحداً من المغضوب عليهم.

أتذكر جيداً مدرسة اللغة الإنجليزية، وأكاد أتبين ملامحها، جاوزت منتصف العمر بسنين. أدمنت العبث بنظارتها المعلقة على سلسلة معدنية رفيعة، تنقلها بين عينيها الغائرتين وصدرها الضّامر، وحاولت جهدها تمثيل دور الأستاذة الجامعية من غير جدوى. فضحها توترها الدائم، ووشى سلوكها بأنها مدرسة ثانوية إن لم تكن ابتدائية. ظّنوا بأن مستواها التعليمي المتواضع كاف أو حتى زائد على احتياجاتنا التعليمية، وشفع لها زوجها الأستاذ في مادة أخرى. تعلم المحسوبية في بلاده، من رئيس أمريكا جون كندي الذي نصبّ أخاه مدعياً عاماً للبلاد، ومن خمسين عضواً في الكونجرس وظّفوا زوجاتهم. فضّلت معلمة المدرسة المتنكرة بقناع أستاذة جامعية طالبة ثرثارة من عائلة فلسطينية ثرية وغير مناضلة. هي تسأل والفلسطينية الأرستقراطية تجيب، وكما توقعنا حظيت بأعلى الدرجات فيما وزعت علينا الفتات.

تنقبض نفسي في الغرفة الأشبه بزنزانة فأخرج للشرفة المشتركة، هنالك وجدني جاري السعودي، على وجهه المشوّه ببثور الشباب ابتسامة خبيثة، بدا وكأن خبراً أو قصة تختنق في حنجرته، ثم أطلق عقالها لتلوّث نفسي والمكان والفضاء. بالأمس عاد من درس صباحي. الدرب إلى السكن يمر بمدرسة ابتدائية لأبناء الأثرياء. قال بأنه لمح بينهم صبياً "ممحوناً"، والممحون بلغة الصحراويين المخنث الذي يمكّن الآخرين من نفسه. دعاه إلى غرفته فاستجاب المحون، وأضاف جاري بأنه احتار أين يلوط بالصبي. أنف من تلّويث فراشه بالبراز والمني ونظر حوله فرأى سَجادة صلاته معلقة على الحائط فتناولها وجعلها فراشاً لفعلته الشنعاء بالصبي. استمعت للرواية بذهول، كأن أحدهم أفرغ داخل جمجمتي كيساً من الجمر المستعر، وددت لو واتتني الشجاعة لأصفع السعودي وأشبعه شتماً وركلاً، لكني خفت من إدارة الجامعة، التي ستقف بصفه وتطردني .بدلاً من ذلك غضبت على ربي لأنه لم يسخط على السعودي فيحيله تمثالاً من الملح أو حجراً مثل إساف أو نائلة أو حشرة لأسحقها

بحذائي، وكلما بسطت سجادتي لأصلي تذكرت رواية جاري حتى صرفني عن الصلاة لأمد من الزمن. بعد حوالي أربعين عاماً التقيت بقريب له في بلدهما ودفعني الفضول للسؤال عن اللواطي، فأجابني بأنه في محنة كبيرة وطلب مني الدعاء له، ففرحت في قرارة نفسي ودعوت عليه بأشنع ميتة.

كان قاسم العراقي الوحيد الذي دامت معرفتي به حتى زمن غير بعيد، عرض السكنى معي مكان اليمني فقبلت، وندمت بعد ذلك، هو الآخر قضى معظم وقته بعيداً عن الكتب. اختار السرير القريب من النافذة الوحيدة من دون اتفاق، مشيئته هي العليا والويل لمن يعارض، مثل كثير من مواطنيه. لا مشكلة لي مع اختياره السرير، لولا رائحة قدميه النتنة. تعفنتا بالفطريات وأهمل علاجها، وفي كل ليلة شتاء بخّرت حرارة التدفئة رائحتهما الكريهة، وفي ليالي الصيف نشرها الهواء المتسرّب من النافذة المفتوحة. كتمت أنفاسي في النهار، ودسّست أنفي وفمي تحت الأغطية في الليل، وجاء الخلاص في آخر الفصل الثاني بافتراقنا.

لقاسم العراقي طبع خاص، اجتماعي لا يحب الوحدة، لكنه يفضّل التعارف على الصداقة، وكأنه مرشح في انتخابات، كل همه جمع الأصوات، إذا جالسك فلدقائق معدودات، وفي النقاش أيضاً صبره قليل، سرعان ما يبدأ بالصياح لو عارضته، وصفوه بأنه عراقي طبق الأصل، أما أنا فشكوا في جنسيتي .ما لا تحبه في طبع قاسم يأتيك أحياناً بالمنفعة، بواسطته عرفت الكثيرين، ومثله معرفة سطحية في الغالب، من بينهم ربيع، تناوب على أربع جنسيات. ولد فلسطينياً، واكتسب الجنسية العراقية مع عائلته المهاجرة إلى العراق، وهاجروا مرة ثانية إلى لبنان، وحصلوا على جنسيتها بألفي ليرة دفعوها إلى محامي، منها رشوة لمختار بلدة وأمين سجل النفوس ليضيفوهم إلى سجل عائلة لبنانية لها ذات الاسم، ومنهم عملاء للصهاينة، وطمع بالكندية فاقتنصها بزيارتين فقط ومن دون إقامة. ربيع قبيح، أصلع، عيناه يشبهها العراقيون بثقوب مغرفة الأرز المخرّمة، أنفه قني ومدبب، له عادة سحبه إلى الأسفل وكأنه يريد التمخط، قصير القامة ويعيب على غيره قصرهم، يسميهم آلة

النداف، التي يضرب بها قطن المفارش واللحف، يذكرك شكله بدمية أطفال مستهلكة، انقطع رأسها فخاطوا على جسمها رأساً من دمية أخرى .والده مُتوفّى ويسكن مع والدته وشقيقه الأصغر وأخواته الثلاثة، وله أخت رابعة فضّلت المكوث مع زوجها في العراق، عملت بعد سنين في مكتب وزير خارجية الطاغية صدام. الأخوات هن المعيلات ويعملن في وظائف مكتبية. شقّتهم فوق مكاتب السِّفَارة البابوية ومقابل محطة بنزين، قميئة ومكتظة، قسموها بينهم بالستائر. توطّدت معرفتي بهم في الأعوام التالية. توفي معظم أفراد العائلة بالسرطان، خطف الموت الأم أولاً، ثم اختين، وجاء دور ربيع بعدهم بسنوات، ولا أعرف مصير البقية منهم، ودفعني تكرار الموت بنفس المرض الخبيث للتساؤل إن كان للبعثة البابوية سهماً في ذلك، ومثل كل البعثات الدبلوماسية نصبت هوائياً كبيراً على المبنى، تبث وتستقبل بواسطته، ولعله تسبب بالإصابات المتكررة للعائلة بالسرطان، كما امتلأت صدورهم كل يوم بأبخرة البنزين المتصاعدة من محطة الوقود القريبة، واكتملت الجيرة المؤذية بمحول ضخم لشبكة

الكهرباء أمام مبناهم، بجانبه مستشفى أهلي، ترتفع من سطحه مدخنة ضخمة يتطاير منها رذاذ ودخان المواد الطبية المحترقة لتلوّث هواء الحي، وأستبعد أن يكون لدار سينما لابارون في الشارع الخلفي القريب أي تأثير على صحتهم، مع أنّ رائحة المباول المتسرّبة من حماماتها تكاد تعمي العيون التي يأتي أصحابها لمشاهدة عروضها الرديئة مقابل ثمن تَذْكِرَة أقل من ليرة واحدة، هي كلها أسباب محتملة لكن المؤكد أن أكثر ما ينهك مناعة الإنسان ويعرضه للأمراض الخبيثة استلاب وطنه، جربت ذلك ومرضت أيضاً لأن وطني استلبه طاغية وأعوانه وأُبعدت عنه.

كلما ركبنا مصعداً معًا، قاسم وربيع وأنا، عمد قاسم إلى هزّه والقفز داخله، وضحكته المجلجلة ضاعفت من رعب ربيع، المصاب برهاب المصاعد والأماكن المرتفعة. لأكثر من مرة وقبل استعمالنا المصعد توسّل ربيع بقاسم بأن لا يهزّ المصعد، فيعده بذلك، لكن ما أن يتحرك صاعداً أو نازلاً حتى ينكث بوعده، غير مكترث لتوسّلات ربيع. أخيراً سأم ربيع من مزاح قاسم السمج واختار الدرج .أسوء دقائق قضاها معنا ربيع

في المصعد المعلق (التلفريك) المفضي إلى تلة السيدة مريم، المزين بتمثال لها فاتحة ذراعيها. في تلك الدقائق شاركت ربيع مشاعر الرعب. لم تنفع التوسّلات مع قاسم، الذي داوم على هزّ القمرة المعلقة يميناً ويساراً حتى خفت أن يهوي بنا من شاهق إلى سفح الجبل، وكنا مجبرين على استعماله في النزول إلى السهل. في السبعينيات عمل ربيع موظفاً في شركة قريبه في الكويت. كان للقريب سيارة بنتلي بينما رزح ربيع وعائلته في شقَّة قميئة، تمنى ربيع لقاءي، لكنه يكره السفر بالطائرة كما استعمال المصعد والتلفريك، فاتفقنا على اللقاء في البصرة. قطع هو المسافة القصيرة عبر الحدود في سيارة، واضطرّني للسفر بالطائرة. اصطحبنا أقاربه إلى نادي ومنه عدنا سيراً إلى الفندق، طاردتنا كلاب سائبة. كل شيء في ثغر العراق باهت ومملّ فلا تستحق قبلة.

نجحت وارتقيت إلى السنة الثانية بمعدل جيد، وفشل قاسم وربيع، وضعوا الاثنين تحت الإنذار، فلو تكرر فشلهم في الفصل الأول من السنة الثانية فستطردهم الجامعة لفصل واحد في الأقل. لم تعكّر النتيجة مِزَاج

قاسم، وبدا لي غير مكترث. جرب الفشل الدراسي من قبل في وطنه وبريطانيا، وكأن الفشل في الدراسة شهادة على أن اهتماماته السياسية تأتي في المقام الأول.

في السنة الأولى معارفي قلّة، ولم يكن من بينهم لبناني واحد، وأحسست كما أمثالي بوجود فجوة بيننا، حتى الاقتناع بأنهم متعالون علينا، ويعدونا أقل تحضراً منهم، ولا فرق بين مسيحي أو مسلم، وفي نظر زميلاتنا الطالبات كنا "السوفاج "المتوحشين الذين لا يهمهم سوى افتراشهن. هم متحضرون لأنهم يتكلمون الفرنسية ونحن متوحشون لأننا لا نتقنها ولو كنا نرطن بعشر لغات، استهنت هذا التمييز في البَدْء لكني ملت لتصديقه فيما بعد. يلامس استعلاء بعضهم العنصرية البغيضة، الفستق عبيدي بدلاً من سوداني، وكل أسود في قاموسهم عبد. نادت ابنه سفير سعودي داكنة البَشَرَة على زميلها فلم يسمعها فنبّهته فتاة لبنانية مارّة: العبدة تندهك! لم أجد التحضر في معاملة الكثيرين، متى ما غضبوا انخلعت عنهم مظاهر الرقي وأقنعة الإتيكيت وظهروا على حقيقتهم،

ليس سواق سيارات الأجرة فحسب الذين تقاتلوا على أفضلية المرور بالأسلحة النارية وبشفرات الحلاقة والسكاكين المحزّزة لتشقَّ خدك حتى العظم فلا يلتئم الجرح بسهولة، وأبسط مظاهر الخلاف الشتائم وسب الأديان والأرباب. لو اتفقت مع سائق أجرة على مبلغ معين وفاجأني عند الوصول بطلب مبلغ إضافي أذعن لئلا أغضبه وينالني أذاه. جرب قاسم نفس الموقف وعاند فأوقف السائق السيارة وهبط منها وفي النتيجة أذعن قاسم هو الآخر. يتذكر نزلاء فندق جبلي اعتادوا قضاء كل صيفية فيه استياء سيدة عراقية مسنّة من الجيل الأقدم من معاملة سائق السرفيس. ظنت سيارته للأجرة العادية فحثّته على المسير، ولما رفض فتحت الباب لتنزل، فهددها: لو نزلت فسأكسر رجلك! فاجأته الصفعة المدوية، ولولا تدخل الحاضرين لأوسعها ضرباً.

من يتأخر عن دخول السكن بعد العاشرة يسحبون هويته الجامعية، ويعيدوها في اليوم التالي، بعد تدوين المخالفة في سجلّ بمكان ما، أظن بأنه مكتب مادة الرياضة حيث يحتفظون بالتقارير السرّيّة للطلاب. لمرة

واحدة تأخرت عن موعد العودة لسكن الطلاب الجدد، كنت بمعية زملاء، شاركتهم أنشطة بريئة، لعلها مشاهدة فلم سينمائي وتناول دجاجة مشوية في مطعم مروش القريب وصحن فول والتحلية بعثملية، والتسكع في شوارع الحمراء على غير هدى. عدنا بعد الساعة المقررة بقليل. اختاروا هم تسلق السور العالي، اعتلوه بسهولة وكأنهم جربوا ذلك من قبل، عدّت فعلتهم حماقة خطيرة فقد يسقطون وتتهشم عظامهم. بعد أقل من سنتين تهور أحدهم، ظن أن الانتقال من شرفة غرفة إلى الشرفة المجاورة هين .سقط من الطابق الثالث على ما أتذكر، مبتعث على حساب طائفته الإسماعيلية، هاجرت عائلته من الهند إلى كينيا. نجا من الموت لكنه أصيب بكسر في الجمجمة رتقوه بقطعة معدنية تركت آثارها على جسمه وعقله. سلّمت هويتي الجامعية للحارس عند مدخل المبنى واستلمتها في الغد.

كانت تلك واحدة من مرات قليلة خرجت فيها من السكن بعد انتهاء المحاضرات وتناول العَشاء في مطعم الجامعة. في أمسيات العطل

الأسبوعية أوقات فراغ وملّ قصيرة، ملأتها بمشاهدة برامج التلفاز اللبناني، أجمد نظري على شاشة الأبيض والأسود، وأترك عقلي ليشرد بي في فضاء احتمالات لا تقل سواداً مع بارقات من الأبيض عن الدراسة وحياتي المقبلة. أهرب من تشاؤم نفسي إلى الشاشة وبرامجها المملّة. لا أشارك المشاهدين القلّة الضحك على تهريج شوشو، ولا أتحمس للمصارعين في برنامَج المصارعة الحرة، أتذكر أحدهم يلبس شماغاً ويلقب نفسه بالشيخ، أشبه ما يكون بشيوخ لبنان، أقصد ساسة الأشرفية والبرج والبسطة لا شيوخ الدين، هم أيضاً مزيفون ومخادعون، لكن عند الحاجة باستطاعتهم تهشيم عظامك أو أكثر من ذلك.

هل ذكرت رداءة طعام الجامعة؟ في أرخص مطعم في رأس بيروت، بل حتى دكاكين اللحامين، تجد طعاماً شهياً وبسعر بخس إلا مطعم الجامعة. كانوا يفرضون على الطلاب المستجدين تناول طعامهم فيه، ندفع الثمن مقدماً مع القسط أول الفصل ونستلم قسائم لشراء طعامهم، تذكرك بمعاملة شركات المناجم والقطارات في أمريكا وكندا للعمال

المهاجرين، ما بعد اقتطاع آجرة السكن القميء وثمن طعام الكفتيريا لم يتبق لأولئك المستضعفين البؤساء إلا القليل من النقود لصرفها على عوائلهم .تعلمت من زملاء بيع قسائم مطعم الجامعة إلى مطعم في أول شارع جان دارك فبعتها بأقل من قيمتها بكثير وصرت أتناول وجباتي خارج الجامعة.

صمّمت على تعلم الفرنسية في العطلة الصيفية، وفي السنة التالية سأكمل تعلمها في الجامعة. تبين بأن عدداً غير قليل من اللبنانيين وغيرهم يلتحقون بصف المبتدئين مدعين زوراً بأنهم لا يعرفون اللغة، وهم بالطبع سيحصلون على أعلى العلامات، وعندما يرسم أستاذ المادة الرسم البياني لتحديد العلامات النهائية سيحصل البقية على أدناها، لذلك سجلت في دورة صيفية لتعليم اللغة في المركز الفرنسي ببغداد، ودفعت رسوم التسجيل المرتفعة. يقع المركز في منطقة بعيدة عن سكني، والوصول إليه يستغرق حوالي ساعتين في حافلتين غير مبردتين تصطليان بحر تموز

اللهّاب. قبل انقضاء الأسبوع الأول ظهر وباء الكوليرا فتوقفت عن الدوام في الدورة خوفاً من الإصابة بالعدوى.

السنة الثانية

عدت بعد انقضاء العطلة ومن المطار قادونا إلى الكرنتينا، وفرضوا علينا خمسة أيام من الحجر الصحي، لأن بلادي وكعادتها كل صيف تقريباً وبأت بالكوليرا، من لا يعرف معنى الكلمة يظنها حياً راقياً، كان بإمكانهم تسميتها بالحجر الصحي لكنهم وكعادتهم فضّلوا اسماً أجنبياً، في البدء كانت الكرنتينا محجراً للمسافرين من بلاد موبوءة، ثم غزاها البؤساء من اللاجئين الفلسطينيين ومحرومي أهل الجنوب من الشيعة وأكراد مهاجرين، فغدت بحجم بلدة صغيرة، لا تغيب عن الذاكرة قذارة المكان والروائح الكريهة المنبعثة من المسلخ القريب وعشش الفقراء المحرومين، كلما مررت بها على الطريق الساحلي شاهدت من نافذة السيارة هيكلاً خشبياً فوق شجرة، لعلها غرفة لسكنى أحدهم، اكتظّت الأرض بساكنيها فلم يجد مكاناً سوى عشّاً فوق شجرة، في أعلى التل

المشرف على جيتو الكرنتينا يجثم حي الأشرفية، يمد قدميه متعالياً وحاقداً على الكرنتينا وأهلها، في الحرب الأهلية نزلوا من خيمهم المصنوعة من نايلون رخيص يقودهم شيوخهم من آل الجميل وآل شمعون تحرضهم ضمائرهم الميتة وذبحوا ألفاً من سكان الكرنتينا الفقراء، وفتحوا قناني الشامبانياً احتفاءً بالأشلاء والدماء والخراب، وشربوا منها حتى الثمالة .كنت وقتها طالب دكتوراه في بلاد الإنكليز، ذهبت لها مكرهاً، لا حباً بالشهادة ولا بالإنكليز، ولكن الشهادة العليا كانت لي وقتها أشبه بتميمة تقيني شرور الحكومة العراقية وحزبها البعثي الحاكم، أو هكذا افترضت، وكنت مخطئاً، فشرور الحكومات العراقية على اختلاف أحزابها، سواءً علمانية أو دينية، ظلت تطاردني في منفاي الاختياري حتى هذا اليوم، لأن أصل الشرور ليس في الحكومات فقط. فقدت صوابي عندما سمعت الخبر وشاهدت الفلم الإخباري عن المذبحة الطائفية، فرحت أهشم بعض موجودات الشقَّة القليلة.

وعدت نفسي بالتفرغ للدراسة ولكني أخلفت وعدي عندما سمعت

بالخبر المفجع : انتحار زميل من السعودية، متزوج من قريبته، وله طفل رضيع، ويسكن في شقّة فارهة حسدناه عليها نحن المجبرون على تحمل العيش في سكن الطلاب، وتبين لنا بأنه كان يحسدنا على العزوبة، ووعودها المتخيلة الكثيرة، التي نادراً ما تتحقق. لم يكتف والده بتزويجه مبكراً، فراح يضغط عليه ليدرس الطب، وهي الأصعب في تلك الجامعة، التي تحرص على أن تصّعب كل مادة على الطلاب، وكأن إدارتها وأساتذتها مجموعة من الساديين، من ينكر أن اللبنانيين الذين قتلوا المارة العزل بالمطارق في الحرب الأهلية ساديون؟ في عصر ذلك اليوم، تركته زوجته للكتب والواجبات المضجرة ونزلت بوليدهما في عربته، عندما عادت وجدت الشقَّة معتمة، وتعجبت لأن زوجها لم ينر المصابيح، وتوقعت أن يكون قد خرج هو الآخر، لكنها عندما دخلت غرفة الطعام وجدته جثة هامدة، متدلياً من الخُطّاف الذي يحمل الثريا. لا أتذكر إن كنت واسيت ابن عمه الطالب في الجامعة أم كان قد ترك الجامعة، لا أدري ما الذي قاده لهذه الجامعة، ضغوط الأب على الأرجح، أحب

صناعة الأفلام السينمائية وأمنيته دراستها في أمريكا، لعل أباه اقتنع بالرضوخ لرغبة ابنه بعد فاجعة انتحار ابن أخيه .كلما التقاني هاوي الفن شبهني بالممثل الأمريكي بكلارك جيبل، لم أجد شبهاً بيني وبينه سوى ربما الأذنان الكبيرتان والشارب الخفيف. كان شاربي مادة لسخرية عراقي من أصل تركي في الثانوية إذ وصفه بلوامس حيوان الهايدرا ولقبني بالجاحظ لكبر عيني من دون جحوظ والأعجب أن اسمه خلوق. بعده شبهني البعض بآخرين. في سنتي الجامعية الأولى صدف ركوبي وطالب كويتي في سيارة أجرة (سرفيس)، وقبل التعارف سألني وكلّه ثقة بالإنجليزية: هل أنت هندي؟ فاجأني السؤال، ولعلني استأت منه، فأجبته نكاية بالإيجاب، لا بد بأنه شاهد شبهاً بيني وبين طباخ عائلته الهندي، أو لعله يعرف بأني عراقي وهو مثل الكثير من مواطنيه يكرهون العراقيين فأراد إغاظتي بتشبيهي بالهنود لأنه في ذلك الزمن كان العراقيون وغيرهم يدرؤون عن أنفسهم قلة العقل والتدبير بالقول استنكاراً: وهل أنا هندي! واليوم ربما يتمنون لو كانوا بمرتبة الهنود في العالم. تلك

كانت شخصيتي الثالثة بعد الريفية والهوليودية. عندما عرف جمع من الأخوة الفلسطينيين جنسيتي رددوا القول المشهين لقادة الكتائب العراقية المشاركة في حرب 1948م: ما كو أوامر! لو كنت مكانهم لتمردت على الأوامر ونزعت التاج والنجوم من كتفي ورميتهم في القمامة وحاربت متطوعاً، لكنهم لم يمهلوني عابني أحدهم بقوله: جنودكم فجروا بالنساء اللواتي قتلهن الصهاينة وحميرنا !صدقته بشأن الحمير لكن الشهيدات يا ويلي! ألم تكفيهم البيدوفيليا والبيستيالاتي حتى مارسوا النيكروفيليا!

ولم يمض وقت طويل حتى جاء أحدهم بصك براءتي:

– هل أنت فعلًا عراقي؟ أنت مختلف تماماً عنهم.

كانت مديحاً في زمن ما بعد مجزرة الرحاب وسحل وتقطيع البشر ومحكمة المهداوي الكوميديا القاتلة التي أزرت بنا جميعاً. توالى كشف الآخرين لشخصياتي المتعددة، منهم أستاذ أمريكي من أصل يوناني نظر لي يوماً وقال:

– ما أشبهك بيسوع المسيح، ولعلك تسمع أصواتاً خفية أيضاً.

خلته يسخر مني ولحيتي المسبّلة قبضة واحدة لا قبضتان، لكن ملامحه وشت بالجدّ، ولم يضحك أو يبتسم، بل واصل التفرّس في وجهي.

إسكافي في مجمع تجاري بالقرب من مسكني في بلدة كندية لحقني يوماً ليسألني:

– أنت سيرياني أليس كذلك؟

كان مقتنعاً جداً بفراسته ولم ترقه إجابتي بالنفي:

– ملامحك سيريانية لا تقبل الجدل.

في قارة أخرى وزمن مختلف قالت بلهجة احتجاج:

– لا تقولي يشبه عمر الشريف. هو أجمل من ذلك بكثير.

هي سيدة بحرينية وصفتني بعد تعرفي بها بثلاثين عاماً، وكنت قد تجاوزت الخمسين. تعمدت اسماع كلامها لزوجها عضو مجلس الشورى الجالس غير بعيد، ربما لتغيظه، فقبل سنين اكتشفت خيانتها له مع مضيفة طيران وامرأة من عائلة الحكام، وتعذر بأن كل "الربع" يفعلون ذلك، لم تصرّ على الطلاق منه لأنه ثري، واكتفت بتمزيق بعض ملابسه.

اتخذت مقهى ألأنكل سام المقابل لباب الجامعة الرئيسي مقراً بعد سأمي من الجامعة وموادها السطحية، فمن افتقدني وجدني بداخله في الأغلب. دخله يوماً أجنبيان، شاب وفتاة جميلة، اقتربا من مقعدي، وترجّاني بلطف بالغ أخذ صورة لي. تعجبت من طلبهما ووافقت. قالت لي الفتاة:

-أنت مثال الرجل الشرقي في ملامح وجهه.

ندمت لأني لم أعزمهما على فنجان قهوة أمريكية.

أهون توبيخ سمعته من والدي:

-أنت مثل البومة.

البومة في نظره والقرويين أمثاله غبية ونذير شؤم، ولم أكن أي من ذلك، ولم يشفع لي عنده إنقاذه من موت محقق في ذروة حياته. كنت طفلاً في الرابعة من العمر، وكان خمسينياً، في رحلة مرهقة إلى إيران أوائل الخمسينيات توقفنا وَسْط صحراء متناهية. وقفت غير بعيد عنه ولمحت البريق:

-بويا! سيجارة فوق رجلك.

لم تكن سيجارة بل صِلّ سام، عندئذ أحس بدبيبه فوق جوربه فقفز وطار الصِلّ .أقل من دقيقة بينه وبين ميتة رهيبة، وأقرب مستشفى إن وجد فيه ترياق للسّمّ مسافة ساعات بسيارتنا الأمريكية الجديدة.

هكذا تعددت شخصياتي في نظر الآخرين، عراقي معيدي ريفي، أم ضد عراقي، أو هندي، وربما هوليودي، وشبيه المسيح، وسرياني، وبومة شؤم وغباء. انتهى منفاي الاختياري في كندا، خارج البيت المصنوع من الخشب والكرتون يهطل الثلج بغزارة هذه الساعة، بالأمس غزا غرفة نومي من منفذ العلّيّة غرير أمريكي (حيوان الراكون)، لعل الحيوان الأمريكي عرف بأنه بيت عراقي فقرر غزوه إسوة بجيشه، حتى الحيوانات البرية فسدت لا تطق برد وكآبة الشتاء الكندي. سلبني العراقيون من قبل وبعد الاحتلال الأمريكي كل وثائقي ومنعوا عني مصدر رزقي، وتبين أن الكنديين لا يقلون عنهم لؤماً وحقداً، لذا فقد صدق زميلي في الجامعة عندما لاحظ عدم انطباق الشخصية العراقية النمطية

علي، وربما الكويتي أيضاً الذي خالني هندياً، ولعل ملامحي الشرقية الناطقة بالألم النفسي المزمن أوحت لجاري الإسكافي بأصلي السرياني، وللأستاذ الأمريكي من أصل يوناني بتشبيهي بالمسيح. المؤكد بأني بومة غبية لأني لم أتخلص من طيبتي ولم أستطعم لحم الأكتاف.

انتقلت إلى سكن "الرجال الجدد"، أجود ما فيه المرحاض الشرقي، فلا تلامس مؤخرتك قذارات زملائك البوالين على أعقابهم ومقاعد المراحيض الغربية. أول ما وقعت عيني عليه في مدخل المبنى المحصن ضد الزلازل لوحة سوريالية تكعيبية، خمنت بأنها لبيكاسو، وعرفتها بعد حين، لوحة جورنيجا، المدينة الإسبانية التي قصفتها الطائرات الحربية لألمانيا النازية وحكومة موسوليني الفاشية بطلب من الطاغية فرانكو فقتلت حوالي ثلاثمائة من سكانها المدنيين، كما شاهدت الفلم الرائع عن المأساة، في لبنان والجامعة كتائبيون أسس حزبهم بيير الجميل مقلداً كتائب فرانكو، حتى القمصان السوداء للفاشيين استنسخها، وفي الحرب الأهلية برهنت كتائب الجميل بأنها طبق الأصل في وحشيتها،

ففي يوم واحد قتل زبانيتهم ثلاثمائة مسلم عند نقطة تفتيش عن الهويات.

لوحة بيكاسو لا تنسجم مع الجامعة الأمريكية، وأشك بأن من اختارها وعلقها في صدر بهو سكن الطلاب جهل موضوعها الثوري.

اختفت وجوه طردتهم الجامعة وبقي آخرون، لم يصيروا رجالاً بفضل مسمى السكن، لكننا نتصنع الرجولة، مجرد قناع نخفي به مراهقة مزمنة. وهل من يرمي أكياسا بلاستيكية مليئة بالماء راشد؟ كنت أراهم من الشرفة يقتربون من سورها لرمي القنبلة المائية على المارة في شارع بلس، ثم ينحنون متخفين، وينسحبون إلى غرفهم وهم يضحكون.

اختارت إدارة السكن زميلي في الغرفة، لبناني صيداوي من عائلة ثرية، هادىء ومستكين، يقضي الساعات في الرسم، كل رسومه لنساء في ملابس مختلفة. صارحني بأنه يرغب في التخصص في تصميم الملابس. يقبل أثرياء اللبنانيين حتى محدودي الدخل على شراء الملابس الثمينة المصنعة في الخارج، وفي بعض محلات أسواق البرج تجد نسخاً منها، وخياطوهم بارعون في التقليد حتى لا تفرق بين قميص فرنسي أو إيطالي ثمنه مئات

الليرات وتقليده بعشر المبلغ أو أقل، حينئذ الدولار الأمريكي يساوي ثلاث ليرات وربع. حرص اللبنانيون على المظاهر وصيت الغنى وأخفوا حقيقة ضيق اليد، وأول ما طمحوا له السيارة والملابس الثمينة، ولو بالتقسيط والدين، ولا أعجب من موظف لا زاد راتبه الشهري على ثلاثمائة ليرة ساق سيارة أمريكية فارهة ثمنها خمسة أضعاف دخله السنوي، وتمخطر ببدلة إيف سان لوران وربطة عنق عَلامَة لانفان.

زميلي في الغرفة يرغب بتصميم الأزياء لكن عائلته مثل معظم عوائل بلادنا أرادت له شهادة في الطب أو الهندسة، وعلى الأغلب أخفق في تحقيق الرغبتين. دفعت رقته ونعومة صوته الخبثاء الذين تعرفت بهم تلك السنة إلى التلامز والتغامز حول ما يدور بيني وبينه في الليل. أدركوا صبري الطويل فتمادوا في مزاحهم.

تزامن بدء الدراسة مع انهيار مصرف أنترا، اكبر مصرف لبناني، مالكه يوسف بيدس، فلسطيني مسيحي، ويضم مجلس إدارته بعض من أثرى اللبنانيين. كان دُرّة النظام المصرفي اللبناني، فسحقه لبنانيون،

تعددت دوافعهم من الحسد إلى العنصرية .لم يشفع له لدى زعماء المسيحيين كونه من ملتهم، وما كانت لديه حظوة لدى أولياء أمر المسلمين اللبنانيين مع أنّه فلسطيني المولد وقومي الميول. أطاحته مؤامرة اشتركت بها أطراف عدة، أرادوا إفلاس المصرف الذي أسس شركة طيران ومد نشاطه إلى الغرب، مقتنياً العقارات وغيرها من الأصول المربحة، هكذا اقتنع زملاء الدراسة من حولي. أشاعت حيتان السياسة والمال نقصاً في سيولة المصرف، وبفعل عقلية القطيع تهافت المودعون على سحب أموالهم، فطلب قرضاً من المصرف المركزي اللبناني المؤسس حديثاُ، فرفض بالرغم من امتلاك مصرفه ما ساوى قيمة القرض وأكثر بكثير، حتى اضطر إلى إعلان إفلاسه. اكتملت المؤامرة بالاستيلاء عليه وضم أصوله للمصرف المركزي. ساكنو خيمة النايلون اللبنانية ألد أعداء أنفسهم، يتناكفون دوماً ويتناحرون أحياناً ولا يتعلمون من خطاياهم، كان ذلك في عهد شارل حلو. ورث الرئاسة والمكتب الثاني سيء الصيت من فؤاد شهاب، تفاخر أنصاره بإتقانه اللغة الفرنسية خيراً من الفرنسيين، وردد

ربيع ما سمعه من ناقديه الخبثاء: الحلو ما إلو! لذلك كان انبعاث الحي المقاوم للصهاينة وعملائهم من بين جيف الأحياء الموتى الذين أنتنوا خيمتهم النايلونية معجزة بحق وحقيق.

مواد الدراسة في السنة الثانية نصفها عام والنصف الأخر علمي، وتكفي قراءة ستة كتب لتعلم كل المواد. أحضر الصفوف بانتظام، لأن الأساتذة لؤماء بالطبع أو بأمر الجامعة، ويتحينون الفرص لاستلابك العلامات، والمهم ليس عدد الناجحين بل المفصولين ليقال بأنها جامعة راقية.

مادة الحضارة إلزامية لطلاب الصف الثاني في كلية العلوم والآداب، تبدأ مواضيعها بنماذج من الحضارات القديمة، لتقفز بعد ذلك على الحضارة العربية الإسلامية إلى الغربية، مدرس مادة الحضارة شاب أمريكي، لم يعرفنا بنفسه، وليس من حملة الدكتوراه. نعيب على أمريكا بأنها بلد دون حضارة، انفصم سكانها عن جذور حضارتهم الأوروبية، ويخلو تاريخهم من أبسط مقومات الحضارة، فمن همجية إبادة سكانها

الأصليين إلى الحرب الأهلية والقنابل الذرية وإحراق المدن، ويومها كانت حربهم في فيتنام مستعرة، لذلك استهجنت تدريس الحضارة من قبل أمريكي، وثبت لي بأنه دخيل على الحضارة مثل قومه. اختزل حضارة وادي الرافدين وقوانينها وعلومها بملحمة جلجامش، ولم يربط بينها وبين طوفان النبي نوح. كان كل همه العُلاقة بين بطلي الملحمة جلجامش ورجل الغابة أنكيدو، الذي بدأ بمصارعة

وسألنا عن طبيعة هذا العراك. كنت أعرف الإجابة من زميل سمعها من نفس المدرس في شعبة أخرى. جاء ليخبرني بما ادعاه مدرسنا المشترك، ربما لأني أشترك مع جلجامش وأنكيدو في المواطنة. في نظر المدرس لم تكن مصارعة بل مضاجعة بين لواطيين، لعله هو الآخر لواطي، اسقط ميوله الجنسية على البطلين، فخيل إليه كل عناق بين ذكرين شذوذاً، ولو كلف نفسه زيارة سوق سرسق بائع أراضي فلسطين للصهاينة أو محطات سيارات وحافلات الأجرة في البرج لشاهد عشرات الذكور متعانقين ويداً بيد.

عرّفني قاسم على طالب عراقي، يدرس مهدي في كلية هاجازيان الأرمنية. طمح لدخول الجامعة الأمريكية، بعد فشل محاولاته المتكررة تنازل وسجل بالكلية. كان اختبار القبول بالنسبة له أشبه باستجواب منكر ونكير في القبر. بعد اختبار آخر ظهر فجأة عند باب غرفة السكن، لم يجد قاسم، فوقف عند سياج الشرفة، خمنت من تجهمه بأنه يتوقع فشلاً آخر في الاختبار، بعد دقائق صمت كئيب غادر.

زياراته لقاسم موسمية، يغيب شهوراً، ثم يظهر، ضخم الجثة، ملامحه جادة، ونادراً ما يضحك، استخف بي، تعودت على احتقار أهل المدينة لي، لأن لهجتي ريفية. أصرّ قاسم على اصطحابي معهما ذات يوم، وقبلت مرغماً تجنباً لإلحاح قاسم وانتقاداته المرة لعزلتي. طلب قاسم مني احضار جواز سفري .استقلينا سيارة مهدي. اشتراها أبوه الثري لابنه الوحيد المدلّل. السيارة في لبنان اقصر الطرق إلى قلوب الفتيات، وكلما كانت السيارة أثمن كان الطريق سالكاً، وأقصرها وأسلكها سيارة سباق، ليس في لبنان فقط لئلا يفهم بأني متجني على إناثها، أتذكر ما قالته

سيدة عراقية أصلها من الشمال متزوجة ولها ولدان، بأنها اقتنعت بالشاب الذي تقدم لها، وغضّت طرفها عن قباحة ملامحه وجسمه المشوه لأنه الوحيد بين طلبة الكلية امتلك سيارة، سمعتها ابنتها فاحتجت على ذم منظر والدها، وبالفعل هو قبيح.

توجهنا نحو طريق الجبل، وبعد توقف قصير في شتورة بإلحاح أشبه بالتوسل من قاسم، لشراء طعام من دكانة بديعة مصابني، الراقصة المصرية سابقاً، بجانب الأطعمة والمأكولات تجد كتاب سيرة حياتها. تناول قاسم طعامه بشراهة.

وجد قاسم في مهدي نداً له، لا يتأثر بصراخه ولهجته العدائية، واستقرت العلاقة بينهما على إذعانه لرغبات مهدي. اجتزنا الحدود السورية، ومضت السيارة نحو ضواحي دمشق، حيث مقام السيدة زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب، ليس بهدف الزيارة والتبرك، لمهدي قريب ساكن في بلدة المزار، اعتاد على التردد عليه بانتظام. غاب نصف ساعة معه ثم عاد، ومنها رجعنا إلى بيروت .منذ انطلاق رحلتنا لم يسألني

قاسم أو مهدي إن كنت راغباً في السفرة القصيرة إلى سورية، وظننت أن احضار جواز سفري ضروري لو أوقفتنا دورية شرطة أو جيش. افترضا بأني موافق، مثل كثير من البشر يتلذذان بالسيطرة على الغير، فكرت عند أول منعطف على طريق الجبل بالاحتجاج وطلب إرجاعي إلى السكن، لكن ذلك يعني إفساد علاقتي بقاسم، الذي شاركته الغرفة العام الماضي وصبرت كل ليلة على رائحة قدميه المتعفنتين.

في بيروت قصدنا شقة مهدي. لو سمع بذلك والدي لاستنكره، أن تشتري لابنك سيارة وتكتري له شقة وهو على مقاعد الدراسة الثانوية دعوة صريحة للتسيّب والفساد. بعد انتظار قصير دق جرس الباب. فتحه مهدي لفتاة شابة، ما جاوزت العشرين. رأسها صغير قياساً على جسمها المكتنز، وملامح وجهها لا قبيحة ولا جميلة. من الباب إلى داخل غرفة النوم، من دون سلام أو تعارف. همس قاسم بأنها عاهرته المفضلة .ذكرني بحكاية كانوا يشنعون عليها على قاسم. ادعوا بأنه كان يومها يجالس عاهرة جلبها صديق مثل مهدي، وجهل عملها، فسألها ببراءة أو سذاجة

متناهية :شتشتغلين أختي؟ بعد قليل خرج مهدي مزهواً كديك منتصر بعد معركة، وترك الباب مفتوحاً ليدلف منه قاسم على استحياء. مضت دقائق خرج بعدها قاسم. دعاني الإثنان لأكون ثالثهما مع العاهرة ذلك اليوم فرفضت. لا بد انهما حرضاها على اغرائي فجاءت فجأة وجلست في حضني، قمت لأتخلص منها فكادت أن تقع على الأرض، وقامت مستاءة لكن من دون إساءة للأدب.

مهدي معذور لأن معرفتي به سطحية، وتحريضه العاهرة على اغواءي سخافة، ولا عذر لقاسم، الذي يعرف جيداً تديني، أو على الأقل ما فضل منه بعد سنة ونصف في بيروت وجامعتها المفسدتين. كان متيقناً بأني سأرفض لكنه مكر مع صاحبه، لإحراجي وربما لإرضاء نزعة غير سوية في نفسيهما. في عائلتي ومسقط رأسي مجاراة الآخرين فرض واجب، أهم لديهم من الصلاة والصوم، يعدون الاختلاف حتى لو كان تديناً خروجاً على الجماعة، لذلك كنت الخروف الأسود عندما صليت رغم استهزائهم، ورفضت التردد على دور البغاء كعادتهم، ومعاقرة الخمر

ولعب الميسر كل أسبوع، حاولو جهدهم لأتسق معهم، ولما يأسوا نبذوني فصرت بينهم كصعلوك من أيام الجاهلية، سوى إنهم هم كانوا من الجاهلية ورفضت أن أكون واحداً منهم، وحتى اليوم أورثوا سخطهم لأبناءهم، فتمادوا في نهب ممتلكاتي القليلة، كنت من الناس المتطهرين لذلك أخرجوني من قريتهم، تباً لهم ولأمثالهم. الديك منفوش الريش مهدي وصاحبه هزاز المصاعد المتلذذ بعذاب ربيع لم يكونوا يومها من المتطهرين لذلك كنت حاضراً معهم بجسدي ومطروداً بروحي من شقة مهدي الموبوءة وعاهرته المفضلة.

راجعت في عقلي كل احتمالات رأيهم في رفضي مشاركتهم عاهرة مهدي، أمروا بأن لا يسخر قوم من قوم، لكن قومي مدمنون على السخرية، يظنون بأنها تكسبهم نقاطاً على سلم الرجولة .إسخر لتحط من مكانة الأخر فتربح نقطة أو أكثر مقابله، عندما لا يكون لديك فكراً أو مهارة ترفعك ارفع نفسك بالسخرية. لا أكترث لسخريتهما، ولا انتقاصهم من فحولتي، هم ولغوا في القذارة وأنا تعففت، ولا قول فصل

غير ذلك.

فصول سخرية قوم من قوم وفرد من آخر لا تنتهي. شهدت أحدها في حفل موسيقي متواضع. تعلقت نفس أردني أو فلسطيني بدراسة الموسيقى، ليصبح فذاً مثل بيتهوفن أو موزارت.لربيع مثال يردده: هل رأيت حماراً يعزف على بيانو؟ يقصد به أن من لا يمتلك موهبة أو مهارة في مجال ما عليه الامتناع عن العمل فيه، الزميل الموسيقى ماهر في العزف على البيانو، لكن طموحه يتعدى ذلك بأشواط، واتضح ذلك من ملصق باللغة الإنكليزيه بخط اليد، ألصقه على لوحات الإعلانات في مباني الجامعة والسكن الداخلي، دعا فيها إلى حضور أداءه لمقطوعة ألفها بعنوان "القمر وأنا"، ما أن وقعت الأعين عليه حتى تواعدوا على الحضور للسخرية من الموسيقار، سمعت أحدهم قائلاً:

-من يظن نفسه؟ شوبان الثاني!

وآزره آخر بقوله:

-يريد منافسة سوناتا ضوء القمر لبيتهوفن لذلك سماها القمر وأنا.

حضرت واستمعت لعزفه المقطوعة، فيما كان الساخرون يتهامسون ويكركرون في الخلف، لكنه تجاهلهم واستمر في العزف، ولا أعرف الكثير عنه بعد ذلك.

مواد السنة الثانية من برنامَج التحضير للطب سهلة نسبياً، وكنت أتوقع درجات عالية تساعدني في التأهل لدراسة الطب، لكن شئت وشاء الأساتذة غير ذلك، الامعقول في تلك السنة أنه كلما بذلت أقصى جهدي في الدراسة والتحضير حصلت على علامات وَسْط، ذكرتني بأستاذ الفلسفة المشرقية واللغة العربية المنتحر لاحقاً، تكاسل عن تصليح ورقة الامتحان النهائي، واكتفى بمنحي علامة المعدل السنوي، ثم تبين بأنهم يضعون العلامات لا حسب الاجتهاد بل وفقاً لخط بياني، والقصد منه تخفيضها إن كان المعدل عالياً وزيادتها إن كان منخفضاً لكي يكون المعدل وسطاً، وأقنعت نفسي بأن هذا هو سبب استقرار درجاتي عند الوَسَط، وفي السنة الثالثة تكشف لي سبب ثاني محتمل.

عرفني ربيع على عراقي، تبين بأنه معيد في الجامعة. استغربت

ذلك. وظفوا خريج جامعة بغداد معيداً في مادة الفيزياء، والأحق بالوظيفة المتميز من خريجيهم، لا بد أن واسطته قوية. عاملني ببرود كعادة أساتذة الجامعة، ذكرني بمدرس الفيزياء العراقي في كلية اليسوعيين في بغداد، هو الآخر متعجرف وفاسد، كلما أراد حلّ مسألة اختار الرَّقْم 151، وللرقم بالأرقام الغربية دلالة جنسية، فيضحك الطلاب المقربون منه، كان يدعوهم إلى بيته، للسهر وشرب الكحول، وتحضر زوجته مجالسهم. دأب المعيد العراقي في الجامعة على حضور الحفلات، وروى لربيع بأنه شاهد خطيبة أحدهم في وضع فاضح مع آخر، وتوسلت له ألا يخبر خطيبها. حضر مرات في درس المختبر، تجاهلني فتجاهلته.

بعد ظهور نتائج الامتحانات النهائية للفصل الأول جاء ربيع. مكتئب الوجه، يجرّ قدميه، بالعادة لا تفارق البسمة فمه وخطواته سريعة. خمنت النتيجة. أخفق بعدة مواد وأبلغوه بقرار طرده من الجامعة، مع السماح بعودته السنة القادمة .أخبرني بأن عهده بالدراسة الجامعية انتهى. من قبل الجامعة الأمريكية جرب حظه مع الجامعة العربية التي أنشأت

بقرار من جمال عبد الناصر. اختار أصعب التخصصات في حينها، وهي الهندسة المعمارية، أخفق في اختبار الرسم الهندسي. لا حقه هوس الشهادة، وأي شهادة ليعلقها على جدار شقته، التحق بمعهد تدريس اللغة الإنجليزية في بناية مجاورة لمطعم فيصل، وحثّني على التقدم لاختبار الشهادة معه، فشل ونجحت. أولد فشله المتكررّ عقدة في نفسه. خيّب الآمال التي عقدتها والدته وأخواته وشقيقه الأصغر عليه. كان رجل العائلة بعد وفاة والده في العراق، وبدلاً من إعالتهم كان عالة عليهم. كلما شاهدني أحمل كتبي ردد سلخراً :العلم للدود. مموهاً خيباته بواجهة سميكة من النكات والضحك.

بعد أيام اخبرني بأنه توظف عند خاله براتب ستين ليرة في الشهر، لا بد بأنه أقل راتب في لبنان كلها. امتلك خاله الثري مكتب محاسبة، ووافق على تدريب ابن اخته على مسك الدفاتر وإعداد الحسابات والتدقيق. يتراءى لي بأن خاله حنّ عليه بعد حين، فزاد راتبه إلى مئة ليرة، ولكن قد تكون الذاكرة خانتني هنا.

ثم حدثت صدمتان حرفت مسار دراستي وحياتي. كنت في درس لا أتذكر مادته، والأستاذ منهمك في شرح موضوع ما. توقف لينصت وشاركناه الاستماع لأصوات لغط وأبواب تفتح ثم تصفق بشدة. اقترب اللغط، وفجأة انفتح باب القاعة، ليظهر فلسطيني من الناشطين في القضية، لا أتذكر اسمه، مهيب بالرغْم قصر قامته لجرأته العالية، ولحزامه الأسود في رياضة الجودو. وقف عند الباب وصاح بنا:

– هيا اخرجوا! لقد نشبت الحرب!

دامت حَيْرَة الأستاذ ثواني ثم خرج وتبعناه. يوم الخامس من حَزِيران من العام 1967م. كنا متيقِّنين من النصر على الصهاينة، عوّلنا على جمال عبد الناصر ومشاركة السوريين والأردنيين. تسقّطنا أخبار المعركة من إذاعة صوت العرب المصرية، واستمعنا بنشوة لبيانات أحمد سعيد الرنانة، أقتلوهم! دمروهم! ثم تبدّد الحماس بعد أقل من ستة أيام. احتل الصهاينة سيناء والضفة الغربية والجولان. تحمّس قاسم للسفر إلى سوريا والتطوع لمحاربة القوات الصهيونية المقتربة من دمشق. ليس لقاسم خبرة

في القتال، ولا أظنه تناول سلاحاً نارياً، ولو كشفوا عليه عند استحقاقه الخدمة الإلزامية لحكموا بعدم صلاحيته، لكنه افترض أن حماسّه للقضية كاف ليكون في صفوف المدافعين عن أرض العرب. اكترى هو وجمع من أمثاله حافلة لنقلهم إلى سوريا. استقبلوهم بجفاء .بعد هزيمة القوات المسلحة ماذا يستطيع حفنة من طلاب جامعيين عمله؟ حتى لا يقال بأنهم رفضوا المتطوعين كلّفوهم بحفر خنادق في ضواحي العاصمة، ثم عادوا منكسرين.

التقيت بربيع، استمعت منه لنكات اللبنانيين المتشفّية بهزيمة الجيوش العربية، ولدعوى أن رئيس الوزراء المغدور رشيد كرامي طلب من قائد الجيش الماروني الزجّ بقواته في المعركة فصفعه! لم أصدق الرواية، فهو لم يكن مثل رئيس وزراء أسبق يقال أنه أقرّ في جَلسة لمجلس الوزراء بثرائه من بيع الفتيات اللبنانيات إلى حكام السُّعُودية. هو فعلًا جمع ثروته من التجارة مع السُّعُودية وكان من قبل مؤتمناً على صندوق لمنفعة الفلسطينيين، فلا غرابة من فشل العرب أمام الصهاينة. من يعش مع

اللبنانيين سنيناً يسمع مثل هذه الروايات النكديّة. المؤكد بأن فتيات لبنانيات مخطوفات انتهين في قصور بالسعودية، وأخبرني أحدهم أن فتاة لم تمكّنه من نفسها لأن ذويها يريدون بيع عذريتها في السُّعُودية. كانت تتصل به هاتفياً على السكن الداخلي لتدعوه لموافاتها في أحد المراقص المظلمة القريبة من الجامعة. أقرأ في الصفحة الرابعة من الصحف أخبار الجرائم والحوادث، وتستوقفني أخبار القبض على رجال يتاجرون بأعراض زوجاتهم فأصبح مستعداً لتصديق أقبح الأمور.

أصر شقيقي على مغادرة الجامعة ولبنان، توقع اقدام القوات الصهيونية على احتلال لبنان، ورفض الاستماع لاعتراضي. اتفق مع زميل كويتي على سفرنا معه إلى شمال سوريا، وإكمال الرحلة إلى بغداد بقطار الشرق السريع. أذعنت لرغبته بعد إلحاح متواصل. أتذكر خجلي عند مغادرتي غرفتي في السكن أمام مرأى زملاء واقفين عند أبواب غرفهم، توقفت أحاديثهم عن "النكسة"، سألوني إن كنت مغادراً، بلهجة مستنكرين أو لائمين. كنت مع المنهزمين في ذلك اليوم. الزميل الكويتي

مسافر إلى ألمانيا ليسكن مع عائلة ألمانية ويتعلم لغتهم. كان طالب البَعثة أفقر الطلاب من بلده، تخصصه العلوم السياسية، وطمح لوظيفة عليا في وزارة الخارجية، وبالفعل تعلم الفرنسية والألمانية، ورطن بهما أمامنا في غير مناسبة، ليشعرنا بتفوقه علينا. أوصله طموحه ومثابرته إلى الترقي في السلك الخارجي، حتى وظيفة سفير. طيلة السفرة من بيروت إلى حلب في سيارة الفولكسفاكن أسمعنا شريطاً مسجلاً لأغاني مطربه المفضل الفرنسي آدمو. ومن كثرة تكرارها احتفظت ذاكرتي حتى اليوم بمقطع من أغنية سينزل الثلج ولن

تحضر. في حلب سأل الكويتي سورياً أن يدله على طريق محطة القطار. فتح باب السيارة وجلس بجانبي، قائلاً بأنه سيدلنا بنفسه. في الطريق عرض مساعدتنا في التعرف على المدينة. اعتذرنا عن قَبُول دعوته لرغبتنا في اكمال سفرتنا. وبعد تلكؤ تركنا وانصرف. دار شكوك شقيقي وصاحبه الكويتي حول دوافع السوري، ورجحا كونه مخبراً. عند محطة القطار شكرنا زميلنا وافترقنا، اتجه هو نحو معبر باب الهوا المفضي إلى تركيا،

ومنها واصل رحلته إلى ألمانيا الغربية. بعد انتظار قصير انطلق القطار، وتبين بأنه قطار الشرق البطيء لا السريع.

في بغداد واجهني والدي بخبر نكسة في العائلة. تزامناً مع النكسة القومية رفض أخوتي غير الأشقاء تسليم والدنا ثمن غلة أرضنا الزراعية، وفرضوا عليه استلام جانباً ضئيلاً منها. هؤلاء كانوا مثل العلق امتصوا تعب والدهم حتى انقطعت أنفاسه الأخيرة.

بعد أسبوع أو أكثر قليلاً من وصولنا إلى بغداد جاء الخبر بعودتنا إلى الجامعة لإكمال الدراسة في الفصل الثاني .عدت بالطائرة محملاً بخيبتين.

في نهاية الفصل الثاني نجحت بمعدل جيد وارتقيت إلى السنة الثالثة، وكانت نتائج امتحانات قاسم دون متطلبات الجامعة فتقرر فصله، مع السماح بمعاودة الدراسة في السنة التالية. أخبرنا بتصميمه على تكرار المحاولة بعد تغيير التخصص.

اكترى شقيقي شَقَّة مفروشة لسكننا خلال الفصل الصيفي. سجلت في مادتين سهلتين نسبياً، أحضر الدروس وأعود للشقة للدراسة. في أحد

الأيام امتلأت الشقَّة بمعارف شقيقي من السعوديين وغيرهم وبمعيتهم عاهرة. عرفت بعضهم من قبل، واكتفيت بالسلام عليهم من بعد. الطلاب الخليجيون ماجنون إلا ما ندر، ولو قلت لذلك الكويتي ابن رئيس إحدى الجمعيات الدينية السلفية بأن لدى زميل نسخة من مجلة بلايبوي فسيلازمه كظلّه حتى يأذن له بتصفّحها، صادفته في مدينة عراقية يحمل عوداً مزخرفاً ادعى بأنه اشتراه لصديق. يصوم السعوديون شهر رمضان، وينتظرون نهايته بفارغ صبر، فما أن يحلّ العيد حتى يهرعون للحانات والملاهي الليلية لفك صومهم، أحدهم حجازي وصف الكعبة بأنها المكان المفضل للتحرش بالنساء. يترصدونهن بعبارة تغزل فجة: هذا ورم ولا دوارق حرم، يقصدون بالورم عجيزة المرأة ودوارق الحرم لسقي الحجاج والمعتمرين.

غضبت على شقيقي الذي حول مسكننا المؤقت إلى ماخور لأصحابه، أحدهم أصيب بالسفلس، بعد الزواج اكتشف اصابته بالعقم نتيجة المرض. لم تطلقه زوجته الشابة لكنها حولته إلى ممسحة باب بيتهما. تأمره

فيطيع حتى الارتداد عن دينه وهجران عائلته.

في صباح اليوم التالي أفقت على دبيب قرب رأسي، فوجدت جرذاً على المخدة، لعله اشتم رائحة الجنس مع العاهرة. في عصر أحد الأيام كنت وحدي في الشقَّة. رن جرس الباب فظننت أنه عامل مغسلة الثياب، فتحت الباب فدلفت شابة مع فتاة مراهقة. منعني الفضول وخجلي المزمن من سؤال الشابة الغريبة عن غرض زيارتها المفاجئة، واستغربت جرأتها التي قادتها إلى غرفة النوم حيث جلست على المقعد الوحيد فيها بينما بقيت الصبية واقفة. قالت بأنها جارتي، ونافذة شقتها مطلة على شقتنا، وأرادت زيارتنا لتسأل إن كنا بحاجة لمساعدة. حرت في التعامل معها. استمرت بالحديث عن نفسها وعائلتها، ولما لم تجد استجابة مني قامت وخرجت. لو كان أحد أصحاب شقيقي لاعتقد بأنهما عاهرتان يعرضان خدماتهما أو مغفلتان مصيرهما الوقوع في براثن فساق مغتصبين.

احتفلت الجامعة بمرور مئة عام على تأسيسها، أخفقت في بلوغ أهدافها التبشيرية، وبدلاً من النهوض بمجتمعها تدنت إلى القريب من

مستواه، وأكثر ما أنتجته غثّ لا يستحق الذكر والاهتمام.

السنة الثالثة

بدأت الدراسة بمعنويات متدهورة. نفسي مثقلة بهزيمة العرب وتسلط الأخوان غير الأشقاء على الأب وأملاكه. لم يفارق بالي التفكير بكيفية تدبير أقساط الجامعة لخمس أو ست سنوات قادمة، لو قبلوني في كُلْيَة الطب. المواد صعبة وتتطلب تركيزاُ كبيراً واجتهاداً استثنائياً. وافتقدت الاثنين. أحضر المحاضرات بعقل غائب، وأتحمل المختبرات بشق الأنفس، وبعد نهاية كل مختبر أجرّ أقدامي المتعبة صعوداً على الدرج الطويل من ما سموه المستوى الأسفل من أرض الجامعة إلى المستوى الأعلى، لأتناول وجبة سريعة، ومنها إلى السكن لدراسة المواد الجديدة والتحضير لليوم التالي. بعد الإرهاق حل السّأم. المحاضرات تملأ ساعات الصباح، وبعد الظهر للمختبرات، ومن بعدها تكون الشمس غربت والظلام يزحف على الدنيا، ومن دون نور تستسلم نفسي للكآبة.

احتدّ التنافس بين طلاب السنة الثالثة التحضيرية قبل دخول كلية

الطب. كنت أرغب بالطب إرضاءً لوالدي ولأشفي المرضى، لكن لغيري مآرب أخرى، العائد المادي والمكانة الاجتماعية، وللبعض منهم فرص معاشرة الممرضات، هكذا سمعت منهم. تقولوا عليهن بالكثير. ادعوا بأن البعض منهن يجرين عمليات إجهاض لطالبات في الجامعة مقابل مبالغ يسيرة.

أعود إلى غرفتي في السكن الجامعي. هي سنتي الأخيرة في السكن الداخلي، بعدها علي استئجار شَقَّة. قبل وصولي إلى باب الغرفة المشتركة يتناهى لسمعي صوت أم كلثوم. زميلي في الغرفة سعودي حجازي، لا يكتمل يومه دون الاستماع لمقاطع من أغانيها الطوال، ويسهر مع حفلاتها الشهرية، لديه صيدلية مصغرة في درج مكتبه، والده صيدلاني، وعاد كل عام محملاً بمختلف العقاقير، ومن بينها عقار السهر، أو هكذا سموه. قبل كل امتحان تناوله للسهر حتى ساعات الصباح الأولى. أتركه ساهراً وأنام بعد يوم مثقل بالمحاضرات والمختبرات. سحبني من يدي إلى شرفة الغرفة، وأشار بيده نحو الطابق العلوي، كلّ الغرف غارقة في الظلام إلا

شرفة واحدة .أخبرني بأنها غرفة الطالب المشرف على السّكن، هو الآخر في الصف الثالث التحضيري لكلية الطب. نام وترك مصباح الشرفة مضاءاً. كرر ذلك كل ليلة، لسرّ حرص على اخفاءه، لكن زميلي الحجازي اطلع عليه من مصدر ما. الطلاب مثله ومثلي متنافسون على أربعين مقعداً في الصف الأول في الطب، بالأحرى ثلاثون مقعداً لأن عشرة منها مخصصة لأبناء الأطباء وأصحاب النفوذ. أبقى المصباح في غرفته مضاءً ليراه منافسوه، فيفترضون بأنه منكبّ على دروسه حتى الفجر، فيقلدونه، أو هكذا يتمنى، فينهكهم السهر، وتتدهور قدراتهم العقلية والجسدية، ليتفوق هو عليهم، تساءلت إن كان هذا الخبث ما قبل الطب سيبقى معه بعد التخرج؟ ليس غريباً أن يسهر الطلاب للفجر بسبب كثرة الواجبات وتصعيب الأساتذة، وشهد مكرم سويدان وهو عميد سابق لكلية الهندسة والعمارة بأنه اعتاد وطلاب آخرين على السهر في الكلية حتى الثالثة والرابعة صباحاً*.

* Petra Raad, FEA dean bids farewell: from the Milk Bar to double dean's warnings. **Outlook,** September 6, 2016.

سمعت بنبأ طرد خازن مختبر مادة الكيمياء العضوية. لا زلت أتذكر ملامحه الفأرية، الرأس المدبب والعينان الغائرتان والصلع المبكر والجسد الضامر. يختفي أستاذ المادة الأمريكي بعد شرح موجز لموضوع الاختبار، فيحل محله الخازن، نظراته لا تفارقنا، لئلا يستعين أحدنا بآخر، أعكف على تحليل المادة المجهولة، المطلوب أن تكون النتيجة صحيحة تماماً، وإلا فالدرجة ستكون متدنية أو حتى صفر، وأربعون بالمئة من الدرجة النهائية للمختبر. في كل أسبوع أكثرية الطلاب حصلوا على درجة تامة أو شبه تامة، إلا أنا وثلّة قليلة .اكتشف أحدهم أن الخازن الشبيه بالقوارض يبيع نتائج التحليل لعدد من الطلاب. طروده لكنهم تكتموا على الفضيحة، ولم يكترثوا لتحري زبائنه من طلاب، فهم أيضاً استحقوا الطرد النهائي لأنهم غير جديرين بمهنة الطب وأخلاقها، لكن إدارة الجامعة غضّت الطرف عنهم لأن منهم أبناء أطباء وذوات سيقبلون رغماً على أنف أبقراط.

الصف الثالث علوم ما قبل الطب ساحة معركة، وكل الوسائل الدنيئة

فيها مباحة، لولا الخوف من العقاب لاستعملوا العنف المفرط. مادة الوراثة إلزامية، درسنا فيها قوانين الراهب مندل في علم الوراثة. عاش مندل وكتب في القرن التاسع عشر، وقوانينه تدرّس كما هي بعد حوالي قرن من الزمن. مؤخراً تبين بأنها لا تنطبق على كل الحالات الوراثية، لكنها في تلك السنة كانت كل ما يعرفه الأكاديميون الغربيون عن الوراثة. نصف العلامة أو أكثر للمختبر. لكل طالب قنينة وضعوا فيها ذبابات الفاكهة، والمطلوب أن تتزاوج لنحصل على النتائج الصحيحة وفقاً لقوانين الراهب مندل. بدت المسألة واضحة وسهلة، الذباب يتزاوج ونسله المبارك يمنّ علينا بدرجة عالية، لكن احتدام الصراع بين الطلاب أقوى من قوانين الوراثة. كانوا ينتهزون فرصة خلو المختبر من المراقبة ليتسللوا داخله، ثم يخلطوا قناني غرمائهم، فتتسافح الذبابات ذات العيون الزرقاء مع الصفراء، فتكون النتائج سلالات من ذباب أبناء زنى، والعلامات صفر.

- أتعرف كيف حصلت على علامة عالية في مادة اللغة الإنجليزية الاختيارية لترفع معدلي؟

أجبته بالنفي.

– كنت أزود أستاذ المادة بصور إباحية.

بعد أشهر ساعدت الطالب الفلسطيني صور نساء عاريات وفساد الأستاذ الأمريكي في ضمان أحد المقاعد الثلاثين في كلية الطب. أتخيله داخلاً الطب بوساطة الأعضاء الجنسية لعاهرات.

بعد سنين سمعت عن تجربة طالبة سعودية في الحصول على القبول في كلية ملائكة الرحمة. كانت ستتقبل استثنائها من القبول لتدني معدلها، لكنها غضبت عندما اكتشفت أن زميلتها طالبة البعثة قبلوها بمعدل أقل. ذهبت تشكو ظلم الجامعة إلى والدة زميلتها. بكت بحرقة. قبل سنين أودعوا والدها السجن لأنه تجرأ على إعداد دستور لمملكة آل سعود. أخلوا سبيله لكن عقله تخلف في الزنزانة المظلمة. ينفلت من منزله ورقابة عائلته إلى الشارع ليطارد حافلات نقل الركاب العامة، لا يستقلها سوى عمال أجانب. في صحراء القبلية تشترك العشيرة في الجريرة والعائلة كذلك، لذا لم تكن للطالبة المقهورة من عون سوى والدة زميلتها، ما أن سمعت

بشكواها حتى اتصلت بالسفير السعودي لتحثّه على التدخل لإنصاف الطالبة، بعدها بأيام قبلوها بقوة السياسة والمال والعصبية القبلية.

إذا لم تكن لك واسطة ترفعك إلى ماتريد الوصول إليه فهناك طريقتان مجربتان، هكذا علمني طالب كويتي، قضى الكثير من الليالي في السهر، لا في حفظ المحاضرات أو إعداد التقارير المطلوبة بل في كازينو دي لبان للقمار .توسّل مراراً لأرافقه، متذرعاً بأنه مدين لبعضهم بأموال خسرها في القمار ويخاف من انتقامهم. صدقته وذهبت معه مرتين أو ثلاث لأنه زميل مهذب. عائلته ثرية وأصلهم من نجد، سجنوا قريباً له في الثلاثينيات بتهمة المشاركة في انقلاب هدفه الاستجابة لدعوة الملك العراقي غازي للوحدة بين العراق والكويت وبقية الدول العربية. توفي الملك بحادث سيارة وقيل بأن عميل الإنجليز نوري السعيد دبّر مقتله، أما قريب زميلي الكويتي فزّجه آل الصباح في السجن، ووصف لي التعذيب الذي لقاه. كانوا يقسرونهم على السير في الزنازن حاملين فوق رؤوسهم أوعية الصفيح المليئة بفضلات أجسامهم. يتركني ليقامر وأجلس

بانتظاره في الباحة. قضيت ساعات في مراقبة المقامرين، لا اسمع ضحكة أو أرى ابتسامة على الوجوه الجّادة، هل يا ترى تنفسوا كالمعتاد أم كتموا أنفاسهم كلما دار دولاب الروليت؟ حتى اليوم لا أميز البستوني عن غيره. بعد خسارته لنقوده نغادر معًا، ويكون الوقت قارب الفجر، ترجّاني للمرور على مطعم العجمي، في منطقة الميناء. طلب صحن كبدة دجاج مطفئة بالرمان، وجبته المفضلة بين كل الأطايب التي يقدمها المطعم، واكتفيت بصحن فول أو حمص. نقتسم الحساب ونغادر إلى الجامعة. كشف لي أسرار نجاحه في دروسه. جرّب طريقتين لتجنب السقوط والطرد، لو خاف من علامة رديئة في إحدى المواد يقصد الدكتور مليكيان، المرشد والمستشار النفسي للطلاب. ليشتكي له من حالته النفسية المتأزمة نتيجة وفاة أحد أفراد عائلته وعدم قدرته على التركيز في الدراسة، مليكيان مستمع جيد، ولا أظنه انخدع بالأعذار المختلقة لصاحبي وغيره من الطلبة الخليجيين، لكنهم من بلاد النفط وللجامعة مصلحة في استمرار تدفق المبتعثين من بلدانهم. توسط مليكيان فنجا صاحبي وغيره من الطرد.

اهتدى صاحبي لوسيلة ثانية لتصحيح علاماته. أحد الطلاب الجدد له صلات وثيقة بمكتب التسجيل، الذي يستلم علامات الطلاب ويدونها في سجلاتهم وشهاداتهم، وبإمكان احد موظفي المكتب تعديل الدرجات حسب الطلب مقابل مبلغ من المال. الطالب الجديد الذي ضاع اسمه من ذاكرتي لكني متيقِّن بأنه عمل في صحيفة النهار، وابتعث للدراسة إلى أمريكا، ربما لأنه "حربوق"، كان الوسيط بين صاحبي وموظف التسجيل، قبض من صاحبي وسلم الموظف الفاسد فارتفعت العلامات من هاوية الفشل إلى قمة النجاح. النجاح على الورق وفي النفس اليقين بالفشل خيار لم تقبله أخلاقي. قبل زمن قصير علمت بأن صاحبي ترك بلاده واستقر في بيروت.

الدكتور مكرم سويدان عميد كُلْيَة الهندسة والعمارة في الجامعة حتى العام 2016 من المحظوظين، إذ روى لمنشور "الأوتلوك" الصادر عن طلبة الجامعة بأنه خلال دراسته لفرع هندسة البيئة في ستينات القرن الماضي (خريج عام 1971) نسج علاقات وثيقة مع أستاذه الدكتور

جرجيس أيوب فكانا يقضيان أوقات الفراغ في الملك بار، وارتفعت الكلفة بينهما حتى صار الطالب ينادي أستاذه تحبباً "أبي جريج"[*]، وهي ظاهرة لم أسمع بها خلال دراستي في الجامعة لنفس الحقبة الزمنية، أو ربما لأني كنت أعيش في عالم آخر، أحترم الأستاذ المستحِقّ للاحترام، ولا أرى نفسي كفءً له، ولست "شاطراً" مثل تلك السيدة العراقية التي التقيت بها وزوجها في الخليج واعترفت بأنها حصلت على شهادتها العليا من جامعة أمريكية بفضل وجبات الطعام الشهية التي أعدتها لأستاذها الأمريكي.

كل مغريات الطب في الجامعة الأمريكية لم تثني الطالب النيجيري الذي أوشك على التخرج من الانتحار. كان محسوداً وتمنى كثيرون أن يكونوا محله، لكنه صدمهم باختياره الموت .احترنا في تفسير سلوكه. ابنة العائلة البيروتية العريقة هي الأخرى تعرضت لصدمة غير بعيد عن المكان الذي وقعت عليه عينا النيجيري قبل اصطدامه بالأرض. شهدت

[*] Petra Raad, FEA dean bids farewell: from the Milk Bar to double dean's warnings. **Outlook,** September 6, 2016.

بأعينها وفاة طفلة صغيرة مريضة عند مدخل مستشفى الجامعة لأن عائلتها لا تمتلك المبلغ المطلوب لتامين إدخالها للعلاج، لكنها لم تهجر الطب، بل استقالت من وظيفتها في المستشفى، وتبنت العزباء طفلة يتيمة ربما لتكفر عن خطايا الطب والأطباء، وهجرت بلدها لتعمل في مستشفيات دولة قطر.

اشتكى الدكتور نسيب البربير مالك المستشفى الذي يحمل اسمه من طمع الأطباء من طائفته السنية، شيّد لعياداتهم مبنى، وكان يشتري كل طلباتهم من أجهزة طبية حديثة، لكنهم استكثروا تخصيص يوم واحد في الأسبوع لمعالجة المرضى الفقراء مجاناً، وكانت عيونهم معلقة على مستشفى الجامعة الأمريكية، هي قبلتهم لأنها لا ترحم أطفال الفقراء. في العراق لا تبح بأسرار مرضك لذلك الطبيب المنحدر من مدينة عانة، لأنه سيتندّر بها مع أقران السوء على موائد السكر والقمار، حتى في كندا المتحضرة بشهادة سكانها البيض الذين أوصلوا سكانها الأصليين إلى شفا الإبادة الجماعية سامني أطباء سوء العلاج والرعاية.

لم أمتلك أي من الوسائل أو الصفات التي أوصلت زملائي لكلية الطب، فوالدي مزارع مخلص لتراثه البدوي، وعندما ظهرت بثرتان تحت إبطي شقيقي احضر لعلاجه حكيم بدوي، كوى عنقه ثلاث مرات حتى تشوّه، كان يزرع ويسلم ثمن الغلال إلى شقيقه الأكبر، عضو مجلس الأعيان، فلا هو طبيب ولا شيخ قبيلة ولا صاحب نفوذ، ولو اتصلت بالسفير العراقي طالباً التوسط لدى الجامعة، فسيزّجرني لأني لست من حزبه أو طائفته المذهبية، وكنت كما وصفتني والدتي "لا اتخرج" أي لا امتلك جرأة زميلي الذي أهدى أستاذة صوراً إباحية، ولا قلة حياءه وخبثه، وكنت وقتها أستحي من النظر في وجوه النساء فأسير مطأطأ الرأس، فما بالك بأعضائهن التناسلية. ولو عرفت بأن نتائج التحاليل المخبرية تباع لما اشتريتها، وستشل يدي قبل أن تمتد لتعبث بقطعان ذبابات الفاكهة المتكاثرة في قناني طلاب مادة الوراثة، هل حقيقتي الجبن أم الترفع والأنفة؟ أم خليط عجيب من الاثنين؟ تراودني الشكوك والظنون في تلك الحقيقة المطمورة في أغوار نفسي حتى اليوم.

هجرت دراسة الطب، وطويت تلك الصفحة المؤلمة من مسيرتي المتعثرة، من دون حساب لمشيئة والدي، العاجز عن استنقاذ املاكه من أبناءه. لم يعد يهمني أي مسار أتخذه. بدلاً من الطب الملوّث برذائل طلابه قررت اختيار أي اختصاص متاح للحصول على شهادة عليا ووظيفة أكاديمية أتدرّع بها ضد ظلمة بلدي.

في الفصل الثاني من العام الدراسي انتقلت للسكنى مع شقيقي في شَقَّة مستأجرة، تقع في شارع خلفي في منطقة الروشة. بينها وبين الجامعة مسيرة أكثر من نصف ساعة. اعترض طريقي في أحد الأيام شاب في عمر الثانوية. لعل سحنتي الجنوبية دلّته على مواطنتنا المشتركة، أو خمن ذلك وأصاب. هاجر وعائلته الثرية بعد الانقلاب العسكري في 1958، استقروا في لبنان وتجنسوا بجنسيتها. كان يترصّدني كلما مرّرت بجانب بيته ليستوقفني ويثرثر. عند غيري هو أهبل، يتكلم بما لا يعرف، وأفكاره شاذة، لكني وجدته بعقل نظيف لم يتلوّث بعد بأوساخ الدنيا .أجاريه لئلا يأخذ بخاطره. في يوم شتائي ممطر تعمّدت السير في طريق مختلف،

أطول لكنه يتفادي العراقي المهذار. فوصلت صف الاقتصاد بعد بدأ المحاضرة بدقائق قليلة، لا تبرّر سخط وسخرية الأستاذ اللبناني. أتذكر وجهه الذي ازداد دمامة بالغضب، استعانوا به من خارج الجامعة، لا يحمل شهادة عليا، لعله موظف في أحد البنوك التي نهبت نقود اللبنانيين وغيرهم في القرن الحالي .ومنذ ذلك اليوم ناصبني العداء وبادلته الكره. قد أكون متحيزاً لو شككت بأنه طائفي حاقد مثل الكثير من مواطنيه. في الفصل الأول من السنة التالية سجلت على نفس المادة مع أستاذ أمريكي، خريج جامعة هارفرد، أو هكذا سمعت، كانت علامتي النهائية شبه تامة، وأعلى علامة حصلت عليها في الجامعة. استغنوا عنه بعد ذلك لأنه يعطي درجات عالية مخالفاً أعراف أساتذة الاقتصاد الذين آمنوا بأن معارفها أصعب من علوم الفضاء.

في كل امتحان مع أستاذ الاقتصاد من جامعة هارفرد ترجاني زميل سعودي مساعدته على الغشّ فرفضت مستنكراً طلبه. اختار مقعداً وراءي يمكنه من قراءة إجاباتي، فنقل معظمها وحصل على علامة ممتازة. إذا

كان الغشّ والكذب معتاداً في مجتمع فليس مستغرباً أن يكذب ويغشّ بعض الطلاب فيه، والسرقة الأدبية ظاهرة موثّقة في المجتمعات الصناعية والأقل نمواً، وبين حين وآخر نقرأ عن سحب دورية علمية بحثاً منشوراً فيها لأن مؤلفه زيّف واختلق بيانات ونتائج البحث، كما يعمد بعض أساتذة الجامعات وغيرهم لإضافة منجزات وهمية أو مبالغ بها على سيرهم المهنية ليحسّنوا من فرصهم في التوظف والترقي، ومؤخراً تأكد بأن جامعات أهلية في لبنان منحت الآلاف من العراقيين شهادات دون استحقاق.

تحرص الجامعات على سمعتها العلمية فلا تنشر عادة معلومات عن حالات الغِشّ والسرقات الأدبية لأساتذتها وطلابها، فلم أعثر على سوى حالة موثقة للسرقة الأدبية أو العلمية في الجامعة الأميركية، ففي 2016 عوقب 72 من طلاب مادة الدوائر الإلكترونية في كُلْيَة الهندسة والعمارة بدرجة الصفر في المادة وبإنذارين أكاديميين لأنهم غشوا في مشروع المادة إذ بدلاً من إعداده بأنفسهم اشتروه من طلاب في صفوف متقدمة، ولم تكن

حالة فريدة إذ سبقتها حالات من الغِشّ والسرقات. وعلق العميد السابق للكلية مكرم سويدان على ذلك بقوله* :

– من المؤسف أننا نعيش في بيئة (يقصد لبنان) يكثر فيها الغشّاشون والكذابون، ويغدون شخصيات هامة.

لو ارتقيت الدرج المؤدي من داخل الجامعة إلى الباب الرئيسي للجامعة لتخرج منها إلى شارع بلس ستواجهك عبارة منقوشة باللغتين العربية والإنجليزية: " لتكون لهم حياة وتكون حياة أفضل"، وبدون ذكر لمصدر يستنتج القاريء من طلابها وزوارها بإنها حكمة صاغتها قريحة أحد رؤسائها أو عمدائها في الماضي، والواقع أنها مقتبسة من وصف النبي عيسى المسيح عليه السلام لرسالته إلى أنصاره، ونصها الأصلي موجود في إنجيل يوحنا المترجم: "أما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل" (الإصحاح العاشر)، وتقضي قواعد الاقتباس والنقل العلمي ذكر المصدر وهو ما أغفلته إدارة الجامعة الأمريكية،ربما لئلا يقال بأنها ما

* Petra Raad, FEA dean bids farewell: from the Milk Bar to double dean's warnings. **Outlook,** September 6, 2016.

زالت مسيحية تبشيرية، ويبقى اهمال ذكر المصدر مخالفة لا تغتفر لطالب أو أستاذ فما بالك بجامعة.

بعد أكثر من عشرة أعوام التقيت السعودي الغشّاش في جَدَّة، واستاءت زوجته لأنه شهد لي بالفضل في حصوله على شهادة الجامعة، ووبخته أمامي عمداً بدعوى تلويثه سَجادة بيتهم البيضاء بصباغ حذاءه الأسود. تطوع لمساعدتي في الحصول على إقامة في بلده لكنه عاد وتراجع، بتأثير من زوجته على ما أظن، التي هي الأخرى ساعدتها في إحدى المواد فساءها تذكر ذلك. بعد تخرجه بسنوات زوّج أخته المريضة نفسياً من المسؤول الأعلى في مشروع كبير فبدأت رحلته السريعة نحو الثروة. ثم عمل مديراً لاستثمارات أحد الأمراء، أمّن له العقود والمقاولات المربحة، فجمع منها الملايين. أسس شركة طيران أهلية، واشترى لنفسه طائرة خاصة، لا تخلوا سيرته من الشوائب لكن صلاته بأصحاب السلطة وثراءه غطى عليها. أختاروه رئيساً لغرفة تجارة كبرى، واستضافته محطة تلفزيون سُعُودية في ندوات، حاضر فيها عن تجربته الناجحة في إدارة

الأعمال وأسدى النصائح للمبتدئين في مجال الأعمال الخاصة، لا أظنه تذكرني في تلك المحاضرات، أو طريقته في الغِشّ في الامتحانات.

كانت حرية من نوع ما، استنقذت عقلي وحواسي من حفظ أسماء مئات العظام والعضلات والتقزز من منظر أحشاء الأرانب المشرّحة ومن ظلام المختبرات وتجهم المتنافسين على المقاعد الثلاثين، أو هكذا أقنعت نفسي، لكن تلك الحرية لم تأخذني لمكان بعيد. اتخذت مقهى الأنكل سام مقراً لي ما بين وبعد الدروس مع كرهي الشديد لاسمه. اخترت مقعدي في الزاوية المطلة على شارع بلس، منها أشاهد المدخل الرئيسي للجامعة والداخلين والخارجين منه، والمتوقفين عند مطعم بخعازي لتناول شطيرة مقانق والواقفين عند صباغ الأحذية، ومن تلك الزاوية شاهدت أحداثاً كثيرة، إطلاق احد رجال الشرطة الرصاص على سيارة طالب أرمني لسبب مجهول، ومسارعة الأرمني للاتصال بأحد ما من هاتف المقهى، تكلم بالأرمنية فلم أفهم ما قاله، لكني خمنت بأنه طلب العون من عائلته أو معارفه قبل وصول رجال الفِرْقَة 16 للقبض عليه، وهم لم

يتأخروا طويلاً، وعرفوا باستعمال أيديهم وسلاحهم قبل تحري الجريمة والتأكد من الفاعل. وغير بعيد سقط أحد الطلاب بنوبة صرع، فهرع أحدهم لوضع ملعقة بين أسنانه لئلا يعض ويبتر لسانه، وبالقرب من النافذة شاهدت ثلاثة لبنانيين، م. ب. وآخرين يحثان الخُطا نحو مطعم فيصل ليحتفلا بالانقلاب البعثي الذي جاء بصدام حسين وبتعيين أحدهم سفيراً للعراق في دولة بأمريكا الجنوبية، وتعرفت في المقهى على وزير خارجية عبد الكريم قاسم هاشم جواد الذي وصف الانقلاب البعثي في 1968 "بالهجمة المغولية الجديدة"، فتجرأت على سؤاله عن سبب قبوله بوزر وزارة في حكومة الزعيم الأوحد الطاغية قاسم فأجابني بصراحة ومن دون غضاضة بأنه أراد منعه من ارتكاب المزيد من الحماقات، بعدها اغتاله سائق فلسطيني مطرود من العمل في الأمم المتحدة، وكان الوزير السابق ممثلاً للمنظمة في لبنان، فحزنت على ذلك الرجل المتواضع.

شهدت حلقات جدل صاخب بين زوجين، بعد الجلوس حول طاولة قريبة والطلب يتبادلان حديثاً بصوت هاديء ثم تعلوا نبرات

صوتيهما، فينتقل التوتر إلى يدي الزوج فترتعشان حتى يصل الجدال إلى صراخ متبادل. كانا يعملان في سينما بيكاديلي، تلك السينما الفاخرة التي شاهدت فيها عرض بحيرة البجع لفرقة بولشوي السوفيتية. في الاستراحة بين عرض قصير عن الأفلام في الأسابيع القادمة تنفتح كوّة في المسرح ويصعد منها الرجل جالساً أمام بيانو كبير وزوجته واقفه بجانبه. يبدأ هو بالعزف وتصاحبه بالغناء بصوتها السوبرانو. أتعجب من الهارموني بينهما في الأداء الموسيقى وانعدامها في حياتهما الشخصية، ربما هي الحاجة الضرورية للقمة العيش. والليبي البدين مرّ بجانب المقهى من دون توقف، شكى لي من تأميم مُعَمَّر القذافي لشركة سيارات أجرة والده، من هنا حتى السكن الداخلي عدة مطاعم لبيع المأكولات توقف عند كل واحدة منها ليطلب شطيرة ويلتهمها قبل بلوغ المطعم التالي. شاهدته يمارس طقوس طعامه أيضاً من شرفة غرفة في السكن.

لم تفقد الخيبة في الدراسة مرح ربيع. بعد انتهاء دوامه عند مكتب قريبه للمحاسبة يمرّ على مقهى الأنكل سام. يتوقع لقاءي فيه وغالباً

وجدني في زاويتي المفضلة أو غير بعيد عنها. أدعوه لتناول كوباً من القهوة الأمريكية، فيقبل وأدفع ثمنها كل مرة برضا خاطر. شكواه من الإرهاق وكثرة واجبات العمل حاضرة في كل مرة، لكنه يستعيد نشاطه لو رافقته في جولة على الأقدام في شارع الحمراء، أجاريه من عند مقهى ستراند حتى المصرف المركزي. باب الكنيسة القريبة من نهاية الشارع مقفلة في تلك الساعة لكنها كما أخبرني تعج بالفتيات السمراوات من جزيرة سيشل العاملات في خدمة بيوت أثرياء بيروت أيام الآحاد، ويقصدها شبان لا لحضور القداس والاعتراف بل للتحرش بالفتيات، ربيع أيضاً يتردد إلى الكنائس، لا للاعتراف بخطاياه وشهواته بل لأنها أفضل الأمكنة لمغازلة الفتيات. توقف يوماً عند مدخل سينما الحمراء ليبث لي أمنيته الغريبة، على سبيل التفكه: لو كان لي قوة لأقفلت نهايتي الشارع وجمعت كل الفتيات الحسان الرائحات الغاديات، ربيع المسيحي هو الآخر حلم بحريم سلطان. بالقرب من مدخل السينما وقف شاب لبناني بملابس نسائية ووجه مطلي بالأصباغ، لا يظن أحد بأن لبنان سباق في ذلك، ففي

الإمارات كانوا يزوجون الذكور، وفي مدينة الزبير العراقية شوهد أشباه رجال بملابس نسائية وحفل زواج لبس فيه الذكر (الزوجة) ثوب العرس، خلال عرض الفلم الأمريكي القبعات الخضر في تلك السينما تطوع نفر من طلاب الجامعة لإيقاف عرض الفلم المدافع عن حرب أمريكا العدوانية على الشعب الفيتنامي فرشقوا شاشة العرض بالحبر.

في طريق العودة، صادفتنا مراراً امرأة سمراء بدينة، تمشي ببطء حاملة حقيبة سوداء. توجه نظرة معبرة نحو ربيع وتبتسم فينظر بعيداً متجاهلها. إنها عاهرة الحي، وربيع أحد زبائنها، سعرها عشرة ليرات. بعد سنين هاجر أخوه الصغر إلى هولندا. وزاره ربيع وأعجب بالعاهرات المعروضات في واجهات زجاجية .تشح العاهرات حتى عاهرة ربيع الرخيصة بعد رسو سفينة حربية أمريكية عند مرفأ بيروت، لغرض راحة ولهو بحارتها، كما يصرحون، لا تطلق السفينة مدافعها الثقيلة على المدينة لتستلم كما فعلت بارجات بريطانيا الاستعمارية في الماضي، فالمدينة وعاهراتها استسلموا من قبل ومن بعد.

ما أن يسمع ربيع بكرمس أو احتفال مفتوح في مدرسة ثانوية للبنات في عطلة نهاية الأسبوع حتى ينسى متاعب العمل وهموم العائلة ويتحمس للذهاب. يظنّ بأن الفتيات المراهقات أكثر استعداداً للاستجابة لأسلوبه في الإغواء، والجرأة كافية في بعض الأحيان للتعويض عن الوسامة والسيارة والغنى، لكن كل الصدود التي قابلته بها فتيات متواضعات الحسن لم تثنه عن الكف عن المحاولة. أعرف على وجه التحديد نجاحه مع اثنتين، الفتاة التي اقنعها بالزواج منه، وربما لم يعدّها ربيع أو أمثاله نصراً في الإغواء لأن كلفتها باهظة، والثانية امرأة ثلاثينية مترهِّلة، منفصلة عن زوجها، ألح عليها الشبق ولم تجد من يقبلها سوى ربيع. صادف وجودهما في نفس المسبح، فاقتربت منه وكانت البداية لعلاقة جنسية بحتة، من جانبه في الأقل، ملّ منها بعد مدّة، وأرادت مني التوسط لعودة الود بينهما، فلم أفعل.

تجهم ربيع حالة استثنائية، حركت في عقلي أشأم التوقعات، اشتداد المرض على والدته و حتى الأسوأ. تحاشيت سؤاله، بانتظار افصاحه عما

كدره. لا أظنه أخبر أحداً بذلك غيري .قال: كنت مع جماعة استدرجوا فتاة معاقة وتناوبوا على اغتصابها، ورفضت مشاركتهم. كان اشبه باعتراف وكنت له الكاهن، ولو لم أطلب منه تكرار الصلاة المريمية أو أبانا عشر مرات ومنحه صك غفران. شعرت بأنه يلوم نفسه لأنه اكتفى بالرفض ولم يمنعهم من اغتصاب الفتاة المسكينة، وفي قرارة نفسي لم أغفر له.

اتصل أبناء عمي الطلاب في جامعة بيروت العربية، ودعوني لغداء معهم في مطعم قريب من الجامعة يقدم أكلات عراقية. قبلت الدعوة. كانوا اكبر سناً مني. ثراء الأباء المزارعين أكسلهم عن الدراسة، فلم يحصلوا على الشهادات الجامعية حتى أواخر العشرينيات من أعمارهم. تباهى أحدهم بأنه أنقذ لبناني من الانتحار. يكتظ شارع الكورنيش المحاذي لصخرة الروشة في أيام نهاية الأسبوع بالمتنزهين، الهاربين من زحام ولغط الحارات الضيقة، فيقضون وعوائلهم الساعات في المشي وتناول الكعك والفستق السوداني (يسمونه فستق العبيد). صادف وجود ابن عمي

بينهم، وعند مروره مقابل صخرة الروشة شاهد شاباً يهم بالقفز إلى البحر وشاطئه الصخري. في كل عام تشهد صخرة الروشة حالات انتحار، ولكن في ذلك اليوم نقصت واحدة، عندما اجتاز قريبي الحاجز المعدني وأمسك بالشاب في اللحظة الأخيرة. اكتفى البقية بالتفرج عليه، ولا أظنهم أثنوا عليه أو صفقوا له. وفي مخيلتي صورة للمشهد. انفض الجمع بسرعة وعادوا لقضم بذور اليقطين والبطيخ وبصق قشورها على الأرض.

مواد التخصص البديل عن الطب سهلة، تكفي ساعات قليلة في الأسبوع للتحضير لها. في أوقات الفراغ تعرفت إلى زملاء كثر من دول عربية، اختارني البعض منهم لبث همومهم العائلية. أعجبت بحماسهم لقضايا أمتنا العربية. بعد التخرج أكمل البعض منهم دراساتهم العليا وعادوا إلى أوطانهم. ترقوا إلى مناصب عليا منهم وكلاء وزارة وسفراء ومدراء كبار، وما عدا قلة بعدد أصابع اليد كلهم ركلوا القضايا القومية والتقدمية بأحذيتهم واستبدلوها بالطاعة العمياء لأولي أمرهم من حكام الجور

والخيانة.

السنة الرابعة

في فيلم شاهد للاتهام يخفي محامي الدفاع تشارلز لوتون مشروب الكونياك في ترمس مدعياً بأنه يحتوي على كاكاو وفي مطعم فيصل المقابل للمدخل الرئيس للجامعة اعتاد أستاذ العلوم السياسية في الجامعة طلب الشاي من النادل، هي كلمة سرّ متفق عليها بينهما، فيقوم النادل بوضع الخمر في إبريق الشاي للأستاذ. في أحد الأيام كان مِزَاج النادل متعكراً وصبره نافذاً، وبعد استماعه لطلب الأستاذ المعتاد مشى خطوات مبتعداً ثم رفع صوتاً مخاطباً الأستاذ: هل أضع الويسكي في إبريق الشاي كالمعتاد يا دكتور؟ لم تطرد إدارة المطعم النادل ولم يتوقف الأستاذ عن شرب الشاي. تندر البعض على كسل الأستاذ، وصفوا مكتبه بأنه المكان المفضل للعناكب في الجامعة، تنسج بيوتها من دون خوف عليها لأنه لا يجلس فيه إلا مضطراً في الساعات المخصصة للطلاب. سمعته يروي نكته سمجة:

– دخل قروي إلى مكتبة فشاهد تَرْجَمَة مصطفى لطفي المنفلوطي لرواية برناردين سان بيير الموسومة بول وفرجيني فاندهش وغضب ثم التفت إلى زائر للمكتبة قريب منه قائلاً: قليلو الأدب نشروا كتاباً بعنوان بَولْ وفرجيني! لم يمنع شربه الخمر ولو خُلْسَة وسرد النكات القبيحة حكومة آل سعود من اختياره مديراً لمركز إسلامي مطل على طلعة السادات.

أساتذة الجامعة متكبرون، يسترضيهم الطلاب، ليس بالاجتهاد في الدرس فقط، الإناث بالجلوس في الصفوف الأولى والكشف عن أفخاذهن، وأكثر من ذلك في بعض الحالات، أما الطلاب الذكور فقد كانوا يتردّدون على مكاتب الأساتذة، ليسمعوهم التملق الممجوج، حول عبقريتهم وعظمة شخصياتهم، وربما ترقرقت الدموع في أعين بعض الطلاب وهم يصفون مدى تأثرهم بأفكار الأستاذ التي غيرت مسارات حياتهم، وأنقذتهم من الضياع، وعوضت عنهم اهمال الوالدين، وقسوة الآباء، بالمقابل فقد يمنّ الأستاذ على الطالب بعلامة أو أكثر.

ذهب طالب من البحرين لزيارة أستاذة في مكتبه، ومن تهيبه الأستاذ المتجهم ذي الأنف الكبير المتعجرف طرق الباب برقة، ثم دخل، فوجد بأن طالبة قد سبقته، وتربعت في حضن الأستاذ، وقد أطبق فمه الخمسيني على شفاهها الغضة فتراجع بسرعة، ولم ينظر خلفه، وغادر المبنى راكضاً، ولم يتوقف حتى دخل غرفته في سكن الطلاب، واغلق الباب وراءه، ومرت أسابيع وهو يحاول اقناع نفسه بأن الأستاذ لم يره، لأنه كان مستغرقاً في عناق الطالبة الحسناء، وعيناه مغمضتان، ولو فتح عينيه فرأس الطالبة وشعرها الكثّ حجبا رؤيته، لكنها التفتت في اللحظة التي سبقت اغلاقه الباب، مما أثار موضوع جدل آخر مع نفسه حول إن كانت الفتاة شاهدته وكشفت هويته للأستاذ، وعندما لم يحسم الجدال مع نفسه لمصلحته صارح بعض أصدقاءه، وتبين خطأه عندما ضخم أصدقاؤه مخاوفه ثم اذاعوا سره بيننا.

خاف زميلنا البحراني من أستاذه لأنه شاهده يحتضن ويقبل طالبة، لكن الأستاذ لم يقلق لأنه مسنود، ولأن الطالبة راضية، وبقي في وظيفته

لسنين.

شهدت طالبة في كُلْيَة بيروت للبنات محاصرة عدة طالبات في صفها لأستاذ خجول بعد انتهاء محاضرته، فتراجع حتى التصق ظهره باللوح. طيلة المحاضرة احتارت عيناه، فأينما نظر وجد أمامه سيقاناً مكشوفة وبطوناً نصف عارية وصدوراً تجاهد للخروج من حمالاتها.

لكن الصدر الأعظم ظل حبيساً وتمرد على محاولات الأستاذ مداعبته، سمعت الرواية من أليكس، صديق لبناني من أصل يوناني. حضرّ لشهادة عليا وعمل موظفاً إدارياً في مجلة أسبوعية. بعد انتهاء دوامه يأتي للمقهى للقائي. كان كتوماً ولا يثرثر عن عائلته. سمعت بأنه يسكن في ملحق ببيت عائلته. حضر يوماً مع فتاة، التصقت به ورمقته بنظرات والهة طيلة الوقت. قصيرة ونحيلة، لا شيء غير اعتيادي في وجهها سوى البثور التي انتشرت مثل أعشاب ضارة في حقل متروك. يجبرك عقلك الباطني على التفرس فيها فتخشى إحراجها، لا أظنّ صديقنا أليكس بلغ به اليأس من التعرف على فتاة ليقبل ذلك الخدين المشوهين أو يلثم الشفاه

ما بينهما. صارحنا في عصر اليوم التالي بأنها مفتونة به، ولا يبادلها المشاعر، ولا يعرف كيف التخلص منها من دون كسر خاطرها. الصدر الأعظم كنية أطلقها خبثاء على فتاة أردنية من عائلة معروفة، لسبب غير خاف، وغريمها أستاذ في قسم السياسة والإدارة. ارتاد مقهانا أحياناً، فيجلس وَحْدَهُ مع كتاب يضعه على الطاولة أظنه من تأليفه جلبه للتباهي. عمره تجاوز الأربعين، ترتجف يداه لا إرادياً فتستجيب لها قسمات وجهه. متوظف في الجامعة اللبنانية، ومن قبلها في الأمريكية. الصدر الأعظم طالبة في مادة درسها الأستاذ المرتجف، دخلت مكتبه يوماً طلباً للمساعدة، فما أن أغلقت الباب حتى فاجأها بالهجوم عليها، تمكنت من صده والتخلص من براثنه والفرار من المكتب. اشتكت إلى عميد الطلاب من سلوك أستاذها الشائن، لكن من دون أدلة يداه مقيدتان، ولو باشر بالتحقيق فشكواها مجرد إداعاء يقابله انكار. الطريقة الوحيدة لإثبات التهمة على الأستاذ هي التلبس، فلو رضيت سيكون عليها زيارته في المكتب فما أن يهجم عليها وتصرخ مستنجدة حتى يقتحم المكتب العميد

والشهود لإثبات التهمة عليه. قبلت الصدر الأعظم بتمثيل الدور، وضبطوا الأستاذ المتحرش قبل نيل وطره، فطردته الجامعة. كان ثمناً باهظاً لقبلة أو مداعبة، لكن الحياء لم يمنعه من التردد على مقهانا المقابل للجامعة، ربما لاقتناص نظرة أخرى على الغدتين الممتلئتين اللتين تسببتا بطرده وافتضاحه.

سألت عن أليكس بعد انتهاء الحرب الأهلية فلم يعرف أحد بمصيره، وخفت عليه من نهاية بساطور أو فأس أو رصاصة قناص. كان مسالماً وودوداً، أحببت صحبته ولم يسمعني يوماً ما يؤذيني.

اعتاد اللبنانيون توقع حرب أهلية في كل عام، وتحققت توقعاتهم أكثر من مرة. ولم تختلف تلك السنة عن سابقاتها. قررت النزول في انتخابات مجلس السكن الداخلي، من دون تبني جماعة طلابية مسيّسة، وصادف أن أحد المنافسين كتائبي، شاهدني واقفاً على شرفة غرفة تقع أسفل غرفته فبصق علي، لم تصبني بصقته، لكن شقيقي أصر على تأديبه. انتظر حتى استقل مصعد المبنى فدلف وراءه، وأدبه من دون

عنف شديد. هرع الكتائبي الجبان إلى قومه يستنهضهم ضد الأجانب الذين أعتدوا عليه، وقصد بالذات بلطجياً بصفة طالب أو طالب بحقيقة بلطجي، قبلته الجامعة ومنحته شهادة بعد أربع سنين، لأن لها أهدافاً خبيثة. فتحمس الطالب البلطجي ليقتص مني. سمع بذلك الفلسطيني الذي أذاع خبر حرب حَزِيران وصرفنا من المحاضرات، فلبس ثوب المقاتلين وتمنطق بحزامه الأسود الدال على مهارته الفائقة في العراك، مبدياً استعداده لمنازلة أي شخص يريد أذية التقدمي، ولما أدرك البلطجي المتنمر قوة جبهة أعداءه ذعر وجاء ليعتذر بأن الكتائبي كذّب عليه، وادعى بأنه عروبي هو الآخر، وترك وظيفة حارس في إحدى كازينوهات القمار في لاس فيجاس ليرافق أحد أنصار قضايا العرب ويحميه من الاعتداء في أمريكا. وجه البلطجي مظلم، بهالات سوداء حول عينيه وملامح قبيحة ونظرات قاسية. كنت بزيارة زميل في السكن الداخلي. وخرجنا إلى الشرفة، فوجدت البلطجي واقفاً مع رفيقه في السكن في شرفتهما الملاصقة، تهكم بوقاحة على زميله القبرصي، ووصفه بأنه شبيه

"فرج المرأة الملطوم"، ثم تطرق لمغامرته العاطفية مع طالبة كويتية، أعرفها من بعيد، منزوية وملامحها جادة، تجعلك تفترض بأنها متكبرة، لأن عائلتها بدوية أصيلة وثرية من قبل النفط وازدادث ثراءاً من بعده. وأشاعوا بأن عائلتها جنت ثروتها من نفوذ وفساد قريبها الوزير .احترت في كنه الود بينهما، إن كان وداً حقيقاً أو خَشْيَة من البلطجي المتنمّر. تباهى بكونه صاحب مروءة وقيم لذلك امتنع عن فض بكارتها واكتفى بنكاحها من دبرها. بعد زمن ترّجاني لاقراضه مئة ليرة ومات من دون الوفاء بدينه. اشتغل بالسياسة بعد سنين وانتخب نائباً في البرلمان اللبناني، فالبلطجة والخبث تجنيك شهادة ممهورة بختم أمريكي وفتاة لا يحلم معظم مواطنيها الدارسين في الجامعة بالزواج منها وزعامة لا تستحقها بجدارة ومقعداً في برلمان الطوائف الساكنة في خيم النايلون.

اخفقت في الانتخابات ولم أكترث للنتيجة. بعدها عرّفني فلسطيني على نفسه، ولامني لأني لم أنسق معهم في الانتخابات، ولما عرف بأني من جنوب العراق أخبرني بأنه شيعي من القرى السبع اللبنانية التي

احتلها الصهاينة في حرب 1948 وبأنه حزين من معاملة الفلسطينيين الطائفية له. ذكرني بزميل اسمه معاوية، سألني يوماً مغتاظاً لماذا تكرهون معاوية (بن أبي سفيان)؟ له صديق في العراق يراسله، ترجاه الصديق بأن لا يدون اسمه على ظروف الرسائل حتى لا تتعرض للتمزيق، لأن العراقيين يكرهون الاسم وصاحبه.

في عدد من الكتاب السنوي للجامعة صورة أخذت لي على غفلة. في ذلك اليوم اخترت وعلى غير عادتي الجلوس في شرفة مقهى المِلك بار، أسم على غير مسمى لمقهى وملتبس مثل كل شيء حوله. لم يبق اليوم من شعري الأملس الطويل في تلك الصورة سوى القليل من الشعر الكثّ الشائب، أعفيت اللحية تعبيراً عن تمردي على الجامعة وقوالبها الجاهزة التي تنبذ التفرّد والشخصية المستقلة، وكانت السِّفَارة العراقية للنظام البعثي الدموي الجديدة متفقة تماماً معها. قصدتها لتجديد جواز سفري، وكنت طالباً على حسابي الخاص، وأول الخطوات موافقة الملحق الثقافي، الذي تبرأ من الثقافة بأبسط أشكالها عندما طلب مني حلق لحيتي وإلا

فلن يوافق على تجديد جواز سفري. هو مثل كثيرين من مواطنيه ما أن يجلس على كرسي حكومي حتى يتحول إلى طاغية، ومصداق وصف المغدور هاشم جواد بأن حكومة البعث غزوة مغولية أخرى. أصرّ قاسم على مرافقتي خلال مراجعتي السِّفَارة، وكنا نعرف مسبقاً ما سيطلبه الملحق اللاثقافي لأن عراقياً آخر اقتنعت فيما بعد بأنه جاسوس للصهاينة مرّ بنفس التجربة، ونقل لي قاسم نصيحة والده بالامتثال لطلب المسؤول العراقي، وبعد استماعي لتهديده وقفت عند مدخل مكتبه وكنت على وشك مخاطبته بالقول: – وهل تأمر أيضاً بحلق شعر..؟ لكن قاسم كّمم فمي بيده فمنعني من إكمال سؤالي. حلقت لحيتي وجددوا جواز سفري.

في أواسط ثمانينات القرن الماضي حظر طغاة صغار أشرار من أتباع نفس النظام تجديد جواز سفري، فتشردت وعائلتي وحرمت من تحصيل رزقي عشرين عاماً، وحكم من بعدهم غلمان أمريكا سكتوا عن ظلم أسلافهم واستلبت أملاكي القليلة في زمانهم الكريه، حتى اليوم ليس لدي جواز سفر عراقي.

كانت أجواء الجامعة تضج بأخبار القتال المتقطع بين الجيش اللبناني والقوات الفلسطينية في مخيمات اللجوء المتناثرة على الأرض اللبنانية. تهدأ هُنيهة من الزمن ثم تعود للاشتعال، ففي لبنان هنالك قادة وأتباعهم يسكنون في مباني حديثة وما هي في الواقع إلا خيم نايلونية ملونة، يقنعون همجيتهم بادعاء التحضر، والانتساب لأمهم الحنون فرنسا، فيقرّون على أنفسهم بأنهم أبناء زنا لأن أمهم الحنون لم تتزوج أباءهم أمام المحراب، وأصلاً لا تعترف ببنوتهم. أن تكون تقدمياُ فلا بد أن تعادي أمريكا، قانون سياسي من قبل وبعد النكبة .كانت السِّفَارة الأمريكية هدفاً لمظاهرات داخل وخارج الجامعة. أتذكر مشاركتي في إحداها. ما أن اقتربت من المكان المطل على مبنى السِّفَارة حتى انحنيت وبعفوية لألتقط حجارة من الممشى غير المبلط وقذفت بها باتجاه السِّفَارة من دون اكتراث لاحتجاج طالب من حزب الكتائب كان في الأغلب يتجسّس علينا، وصرخ بنا: – لا يا شباب! في الوقت الذي كنا ننفّس

عن غضبنا على سِفَارة أمريكا كانت إدارة الجامعة تتعاقد مع وزارة دفاعها.

توفي فلسطيني خلال استجوابه من قبل الأمن اللبناني، ادعوا بأنه قفز من نافذة في الطابق العلوي، لم تهتدي عقول زبانية النظام لرواية قابلة للتصديق، فخرجت مظاهرة حاشدة تنديداً بقتل الفلسطيني، شارك فيها قاسم والسعودي السفير لاحقاً، وأوقفت الشرطة عدداً من المتظاهرين ومن بينهم قاسم والسعودي. روى قاسم تفاصيل ما جرى في مخفر حبيش. صفّوهم أمام مكتب ضابط، ليس للاستجواب بل لتلقي الصفعات قبل الإفراج عنهم. صفعة واحدة لكل منهم، من حظ السعودي السيئ ذلك اليوم تقدمه في الصف على قاسم، فتلقى صفعة، ولما أتى دور قاسم وكان قد هيأ خده ونفسه للصفع لكن الضابط ملّ أو أوجعته يده من كثرة الصفعات، فنجا قاسم من العقاب.

زارنا عراقي، تاجر جلود ومصارين، ساعد والدي في نقل مبالغ صغيرة لدفع مصروف دراستنا ومعيشتنا في لبنان. مهذب وودود فأستحي من

عدم تلبية طلبه بمصاحبته في جولة على مقاهي بيروت.أسس فيما بعد مصنعاً للنقانق، أسقط النظام البعثي جنسيته بدعوى أنه من أصل إيراني وطرده هو وعائلته عبر الحدود الوعرة الملغومة. لو بقي في إيران لاستمر في تجارته الناجحة لكن حنينه لوطنه وخلانه دفعه للكتابة إلى صدام حسين متوسلاً الموافقة على عودته ومتعهداً بالتبرع بمصنعه لمنفعة الحرب الظالمة، فوافق وانقطعت عني أخباره، وتبخّر تقديري له. في تلك الليلة انتشى تاجر الجلود والمصارين بعدد من كؤوس الخمرة، ولم يصرّ على مشاركتي مرحه، الذي انطفأ ما أن سمعنا بغارة صهيونية على مطار بيروت وتفجير عدد من طائرات شركة طيران الشرق الأوسط. صادف خروجنا من مقهى في الزيتونة وجود عدد من أفراد الفِرْقَة 16 المعروفة بقسوتها، فوقف صاحبنا التاجر غير بعيد وخاطبهم - :

- ماذا تفعلون هنا؟ إذهبوا إلى المطار فالصهاينة فجّروا طائراتكم!

لم يكن سكراناً، فلا ترنح ولا تعتع. وقف تجاه العسكريين المدججين ببنادق أمريكية، ويكفي أحدهم لتكسير عظامي وعظامه وجرّنا على

أسفلت الشارع إلى سيارتهم العسكرية حيث ينتظرنا المزيد من الإهانات والتعذيب، لكنهم لم يفعلوا شيئاً، اكتفوا بالنظر إليه غير مصدّقين أن أجنبياً في أوسط العمر، أبعد ما يكون عن هيئة قبضاي اتهمهم بالتخاذل في أداء واجبهم بالدفاع عن وطنهم، أم لعله أخجلهم فاستحوا من وقوفهم في الزيتونة حراساً للسكارى والقوّادين والعاهرات في الوقت الذي انتهك الصهاينة سيادة وطنهم.

في أحد ملاهي الزيتونة في الأغلب تعارك ابن الرئيس "المؤمن" أحمد حسن البكر مع متنافسين على وصال "ارتيست" فصدر القرار الجمهوري بعودة المصطافين العراقيين من دون تأخير. ظهرت في نشرات الأخبار مشاهد للعائدين في مطار بيروت. عبّرت امرأة عن حزنها بالدموع. اتصل قاسم بمسؤول في السفارة العراقية فطمأنه بأن الطلاب مستثنون من القرار.

الطلاب العراقيون في الجامعة قلة، مثلوا كافة النظم السياسية التي مرت على بلادهم، ملكيون وشيوعيون وبعثيون وقوميون، الشيوعيون

طلاب بَعثة من عهد عبد الكريم قاسم. قضوا سنين في جامعات دول اشتركية، وبعد الانقلابين البعثي والقومي استدعوا لإكمال دراستهم في الجامعة الأمريكية، على أمل غسل أدمغتهم من لوث الشيوعية. أعدّ الشيوعيون حفلاً تمثيلياً، حضره بعثي يساري وقاسم وأنا. تخرج طالب شيوعي من الجامعة وسافر إلى أمريكا وعاد بالدكتوراه، تخلى عن عقيدته الأممية وانضم للحزب الحاكم طمعاً بمنصب مهم. شاهدته بالصدفة خارجاً من المؤسسة الكبيرة التي أدارها، ومن دون خجل فتح صندوق سيارته ليستخرج منها بندقية كلاشينكوف وأخبرني بأنه ذاهب للتدرب مع الجيش الشعبي الحزبي، اتهموه بالتجسس لأمريكا، وحكم عليه بالسجن ولأقل من هذا كانوا يعدمون. خرج من السجن على كرسي متحرك، وبعد الاحتلال الأمريكي تبنى النهج الليبرالي، ورشّح نفسه للانتخابات النيابية ففشل. البعثي الذي شاهدت معه حفل الشيوعيين تخرج مهندساً، وسكن سورية، مقرباً من النظام البعثي، احتفل بزواجه في أفخم فنادق دمشق. خلال سني

الشقاء والتشرد في سورية شاهدته في أحد شوارع العاصمة، التقت نظراتنا فتبسم لكني أشحت بوجهي وابتعدت، أختطفته جماعة وبعد تجريده من ملابسه تركوه عارياً في الطريق بين العاصمة وبلدة السيدة زينب.

لبلد الأرز وجهان، متحضر بعضه حقيقي وأغلبه مزيف، ووجه مظلم يسكنه الساسة الفاسدون ونخاسون متاجرون بالنساء لدول الخليج ومحتالون وزُعر، وكدت أذهب ضحية لواحد من الزعر، بينما كنت أتمشى في شارع الحمراء مع الكويتي المفتون بالمغني الفرنسي أدامو والسفير لاحقاً استوقفني لبناني ضخم الجثة. سدّ أمامنا الطريق واتهمني بمضايقة صاحبه على الرصيف قبل قليل. صاحبه نحيل وقصير ودميم ورأسه بحجم شمامه .افترضت بأن علاقتهما ليست صحبة بريئة بل شذوذ جنسي، ربما لأني كرهتهما .صدمت لمصادقة الكويتي على كلامه، كنت أعدّه أكثر من معرفة لكنه خذلني لجبنه. دعاني البلطجي لمنازلته في شارع فرعي، وكنت على وشك القبول بذلك

مرغماً مع علمي بما ينتظرني، لكن ما حدث عندئذ أشبه بالمعجزة أو نجدة غيبية، كنا واقفين الأربعة غير بعيد عن مفرق شارعي جان دارك والحمراء عندما خرج من الشارع الفرعي القريب السعودي ح. ع.، حجازي من الأشراف، سكن وعائلته مصر، ملامحه وبشرته قوقاسية، طويل ومفتول العضلات، ورياضته المفضلة الملاكمة، كان العون المنتظر إن لم تحضر الملائكة الشداد لنجدتي، وكأن ما قاده إلينا أو الحدس كشف له، فسارع خطاه حتى واجه البلطجي. ما بين الإثنين مسافة كف واحد وتفرّس بالنظرات وتحدي بالإيماءات. بهت البلطجي واصفرّ وجهه، أدرك بأنه أمام خَصْم قوي، وانسحب جاراً مخنثه خلفه. ما أن ابتعد البلطجي الزعر وغلامه حتى تحركت نزعة خبيثة في صاحبي الكويتي، هو والسعودي نقيضان، الكويتي قصير ودميم ومن عادته زمّ شفتيه ثم مطّ فكّه الأسفل وثني رأسه إلى جنب، وتكتمل طقوس ما قبل الكلام بشفط مخاطه بصوت عال مقزّز، وفي لقاء تلفزيوني كان لا يزال ينظّف جيوبه الأنفيه بنفس الطريقة ويسبغ على نفسه معارف

لغوية لا يمتلكها، نبذه معظم مواطنيه في الجامعة لعدوانيته، وأكثرهم نفوراً منه اتهمه بسرقة الفتاة التي أحبها وزواجه منها. كلما نظرت باتجاهه فتاة لايحلم بالتعرف عليها ردد باقتناع تام: – شوفوا هذي تحبني! يحكم ربيع على كل الكويتيين الأصيلين غير المتجنسين بانهم "خرشان"، أي مجانين أو معقدين بالعامية الكويتية، أفسدت نفوسهم أموال النفط والطفرة السريعة من البداوة وصيد السمك والغوص وشظف العيش إلى المدنية الزائفة والثراء. ادعى الكويتي "الخريش" بأنه قادر على هزم البلطجي وَحْدَهُ، وبأن قصر قامته ناجم عن ممارسته تمارين الجمباز في المدرسة، وظل يثرثر حول مهاراته في الرياضة حتى وصلنا سكن الطلاب الداخلي، ويبدو أن عقدة قصر القامة وانخذاله أمام البلطجي حرضته على تحدي السعودي المنقذ، فبدأ باستعراض قدراته الجمنازية، وتوقعت رداً سريعاً وحاسماً، فمن يمتلك قوة مثله لن يصبر على الاستفزاز المزعج من مثل الكويتي المتنطّع، لكن صبره فاجأني. تركه ينطّ ويستعرض ثم تركنا وانصرف. بلغ انزعاجي من الكويتي

الصبياني ذروته فهو تخلى عني بجبن أمام البلطجي ليخلص نفسه ثم استغل صبر السعودي ليغسل عن نفسه عار الخذلان. السعودي البذيء آنذاك والسفير لاحقاً تحرش أيضاً بالسعودي المنقذ، والاثنان حجازيان من الأشراف، سكت عليه طويلاً ثم استنكف من الرد عليه وترك ذلك لابن عمه الذي صفع السعودي المتحرش، فكانت الصفعة الثانية التي تلقاها أثناء دراسته في الجامعة، لو كان السعودي الصبور عدائياً لما استحمل أذى ابن عمه، لا أدري إن كان هو الصافع أم غيره، كانا مع آخرين يلعبون البلوت أو غيره من ألعاب ورق الشدة في مدينة جَدَّة، أغضبت الخسارة ابن العم، فطعن قريبه في خاصرته، ولطبيعة جسمه الرياضي لم يشعر بالطعنة إلا عندما لاحظوا نزيف الدم، وفي المستشفى تبين بأنه فقد كليته، لذلك لم أصدق ادعاء طليقته المدمنة على لعب البريدج بأنه كان يضربها.

اسم عائلة الكويتي لاحقه كظله، كاشفاً عن تدني مستواها الاجتماعي، وزاد عليه قصر القامة، حتى من دون سلاح و ملابس

مموهة كان مستعداً لمبارزة العالم الظالم في أي لحظة، ولو بتهور. شهدت فصلاً من فصد عقده في كورنيش المزرعة. طلب مني مرافقته في جولة بسيارته الفولكسفاكن، انطفأ مرحه فجأة لدى مضايقة مرورية. تجاهل طلبي منه الهدوء وتجنب المواجهة. أوقف السيارة بعيداً عن الرصيف، ردة فعله غير عفوية بل مسرحية تخيلها من قبل زمن وكتب حوارها وتفاصيلها، بإيجاز كان نصّها: لو واجه موقفاً كهذا فسينزل من السيارة بغضب، ويقذف بالنظارة السميكة على مقعده استعداداً للعراك، ويصفق باب السيارة، ثم وفي المشهد التالي سيصدمهم بالوقوف وَسَط الشارع ليراه الجمع المتحلق حوله ويخاطبهم:

– تعالوا وافعلوا بي!

استعمل كلمة فاحشة بمعنى افعلوا بي، وَسَط اندهاش السامعين، المعتاد بعضهم على سماع واستعمال كلاماً أشد فحشاً، لكنه فاجأهم بردّة فعله غير المتوقعة. تحيروا في فهم سلوك الشاب القميء الذي تحداهم، وأظنهم عدّوه معتوهاً لا يستحق حتى الصفع. سكوتهم كان

كافياً ليشعر بزهو النصر، عاد إلى السيارة وساق بنا مبتعداً. شاهد أحد مواطنيه يتعرض للضرب المبرح في دولة أوروبية فنزل من سيارته الدبلوماسية – ولا بد أنه نزع نظارته السميكة – ليشارك في العراك، فناله نصيباً وافراً من اللكم والركل.

أتذكر سيارة الفولكسفاكن وتقاطع شارع عبد العزيز مع شارع آخر، كنت أحد ركابها وأصر السائق على ملاحقة ثلاث مراهقات، السائق ربيع أو الكويتي، والمرجح الثاني .نفد صبر الفتاة الأكبر بينهن. انحنت لتخاطب السائق:

– أليس في بيتك مرآة؟ وهل نظرت فيها مؤخراً لترى وجهك القبيح؟ ضحك السائق وكأن كلامها نكتة. بقدر ما يكره الجمبازي الفلسطينيين لموقف منظمتهم من احتلال الكويت يحب مخلصهم الرئيس الأمريكي بوش لدرجة الدعوة لنصب تمثال له في إحدى الساحات أو في الأقل إطلاق اسمه على شارع رئيس، وهو لا يطيق الصواريخ الباليستية لإيران

وربما يود لو عادت حكومة الشاه، ونسي أنهم شركاء في الحرب على إيران ووزر الدماء المسفوحة من الطرفين.

تغاضى زعر كورنيش المزرعة عن فظاظة الكويتي لكن وجود السعودي المنقذ الغريب بعضلاه المفتولة في منطقتهم عدوه اعتداءاً، تصرفوا كسكنة الخيم، المصنوعة من وبر الجمال في البادية ومن نابلون زاهي الألوان في بيروت، فتجمع عليه شباب حارة كورنيش المزرعة وسارعوا لإخراج أمواس الحلاقة المسنونة، فلاذ بالفرار، هو الآخر قادته العناية الغيبية عبر الشوارع الفرعية مسابقاً مطارديه حتى تعبوا ونجا.

توطّدت معرفتي بزميل كويتي، أثرت عائلته من وكالات السيارات المستوردة، قاد سيارته الثمينة عبر العراق، واستضفته في فندق بغداد، وعندما ذهبت للكويت لإجراء مقابلة وظيفة مع الجامعة أصرّ على استضافتي لليلة واحدة، رفضت عرض الجامعة السخي خوفاً من سطوة النظام العراقي البعثي الذي أنذرني بعدم تجديد جواز سفري، ومن

تواطؤ الحكومة الكويتية معه. أخبرني بأنه يستضيف إيراني من حركة مجاهدي خلق التي قتلت الآلاف من الإيرانيين، فكرهت الإقامة في شقته، وتمنيت لو بقيت في سكن الجامعة. تصرفاته غير الناضجة أحياناً أقنعت ربيع بأنه "خريش "ايضاً .في أيام الزمالة دعاني لقضاء يوم في مدينة عالية الجبلية، دخل البيت الذي تمتلكه عائلته، وخرج حاملاً بندقيتي كلاشينكوف، قدم لي إحداهما فرفضتها، اطلق صلية من البندقية، خرق صوت الرصاص سكون الجبل ولوث هواءه. أخبرني بأن وكيل والده اللبناني اشترى له البندقيتين.

لأنهم رفضوا إكمال دراسته في جامعتهم قرر طالب كويتي الانتقام منهم، لا من أساتذته وإدارة الجامعة بل من كل الإنجليز. أخبرني بأنه كان يمشي في شوارع وأسواق لندن المزدحمة، ويغرز طرف مظلته الحديدي في مؤخرات وأرجل المارة أمامه، ولو التفت أحد منهم اعتذر له بلطف. العودة من دون شهادة عار وعيب يعرضه للاستهزاء، لذلك تنازل والتحق بجامعة بيروت العربية لدراسة القانون.

في عطلة ما بين الفصلين اعتاد بعض الطلاب الكويتيين السفر إلى القاهرة. يجتذبهم تواضع المصريين وأسعار تحويل العملة ورخص الإقامة والجنس، يعودون بروايات صعبة التصديق. سعر فنانة مشهورة أربعون جنيهاً، وفنان كوميدي معروف يتولى توصيل زوجته الفنانة أيضاً بسيارتهما إلى الزبائن، ولعارضة الأزياء قبل أن يتضاعف وزنها سعر أيضاً.

هروب ابنة ولي العهد الكويتي مع حبيبها اللبناني إلى قبرص شغل اهتمام الطلاب الخليجيين، عذرها البعض لأن أبيها معروف بشراسته، ومن يرى وجهه المتجهم يصدق أسوأ ما قالوا فيه. أشرف على تمارين للجيش الكويتي، وصعد مع نخبة منهم إلى طائرة سمتية، بعد ارتفاع الطائرة عدة أمتار عن الأرض أمرهم بالقفز منها، توسلوا إلى"طويل العمر" للطلب من ربان الطائرة الهبوط بها إلى علو يمكن القفز منه من دون مخاطرة، لكنه أصرّ وعاند، فنفذوا أمره، وأصيبوا بكسور ورضوض. عندما جاء دوره لاستلام الإمارة تجاوزوه. سافر ولي العهد

إلى قبرص للقاء ابنته المراهقة واقناعها بالعدول عن زواجها من اللبناني والعودة معه، لكنها رفضت لقاءه إلا بحضور الشرطة القبرصية خوفاً منه. حزن لطلب ابنته، وكان للبنت المتمردة ما أرادت. أسرت أختها لزميلتها السعودية بأن أحسن ما في عائلتها ابنة عمها، لأن والدتها لا تنتمي لعائلتهم، ابنة العم درست في إحدى الجامعات المصرية، قبل سفرها إلى بلدها في عطلة صيفية قدم لها أستاذها قائمة بطلبات زوجته وعائلتهما من ملابس خارجية وداخلية، أما هو فلم يطلب لنفسه شيئاً، حملّتها نساء من العائلة الحاكمة هدايا لأم كلثوم، ملأت عدة حقائب، جواهر ثمينة من الألماس وأقمشة فخمة، فتحت الحقائب لتريها لرفيقتها السعودية

: – هذا البروش الألماسي على صدر أم كلثوم؟ والقماش الفخم المصنوع منه ثوبها؟ كلها هدايا من نساء آل الصباح.

قيل أن عبد الناصر أبلغها قبل قرار التأميم فسارعت لبيع أسهمها فلم تخسر جنيهاً واحداً.

تخرج عبد الله النفيسي قبلي، ثم عاد بعدها بفترة ليكمل بحثه عن ثورة العشرين في العراق .قصدنا لتسهيل مقابلة عمنا، أحد قادة الثورة القبليين والوزير وعضو مجلس الأعيان. بعد فشل الثورة فرّ إلى الحجاز مع ثلة من قادة الثورة، وبعد مقابلة ملك الحجاز الحسين بايعوا ابنه فيصل ملكاً على العراق. رتبنا لقاءاً للنفيسي مع العم في الفندق الذي يقيم فيه في مدينة برمانا الجبلية.

عاندت الشيخة الكويتية ورفضت ترك زوجها اللبناني، لكن السعودية الحسناء أغرمت وندمت وتحملت وعائلتها نتائج حماقتها الوخيمة. تحاشت فتيات الخليج مصادقة زملائهن، لأنهم يثرثرون ويفضحونهن، لذلك فضّلن اللبنانيين ومن غير جنسياتهن، عندما يسمع أحدهم عن فتاة سعودية يتوقع سمراء بجمال متواضع، لكنها خرقت الصورة النمطية في أذهان الكثيرين بجمالها الذي جعلها حلماً مستحيلاً على الطلاب من منطقتها واجتهادها الذي أوصلها إلى مقاعد الجامعة الأمريكية، لكن ذكاءها لم يكن كافياً لاكتشاف مكيدة

اللبناني، الذي طمع بمالها. سألني سعودي مدير شركة كبرى عن رأيي بأفضل مدير لإدارة التسويق في شركته، رفض السعودي الذي رشحته للمنصب، لأنه لن يختار سوى لبناني، فاللبنانيون في رأيه أمهر الناس في البيع، وكان اللبناني الذي اختارته الفتاة السعودية ماهراً في الترويج لنفسه، أو رَمِدت عين حبها، سرعان ما تحول عسل الزواج إلى أمرّ من الصبر، ونفذ صبر الزوجة المعنّفة نفسياً، فطلبت الطلاق، ثمن الطلاق مليونا ليرة لبنانية، في وقتها ثروة لا يمتلكها إلا ثلّة من مواطنيه. كعادة الخليجيين ومعظم العرب ساومت عائلتها على حرية ابنتهم، ترجوا وساطة المرحوم الدكتور نسيب البربير فقبل، وتمكن من تخفيض المبلغ إلى النصف.

في كل مجتمع أمثال اللبناني المحتال حتى في السُّعُودية، وليس بالضرورة أن يكون صعلوكاً، هو أحد أقارب الفتاة السُّعُودية المخدوعة، ولا أعرف درجة القرابة، وقبل السؤال عن الأخلاق يسألون عن العائلة والأصل. لذلك عندما تقدم شاب من عائلة نجدية أصيلة تحمست عائلة

الفتاة المنحدرة من سلالة مغمورة أو مجهولة، وللعائلة شجيرة لا شجرة، فلا قيمة اجتماعية لثراءهم الفاحش، سألوا كبير العائلة النجدية فنصحهم برفض عرض الزواج لأن الخاطب أردأ أفراد عائلته، لكنهم ظنّوا بأنه أراد منع الزواج لأنه لطخة عار على عائلته الأرستقراطية. في حفل الزواج وقفت أم العروس تنثر على الضيوف ليرات الذهب وتردد: زواج ابنتها "كاد العدوان"، ما كاد يمر وقت طويل حتى شمت بهم الأعداء والحسّاد، نفذت طاقة التحمل لدى الزوجة، فأرادت الطلاق، فاستجاب الزوج ذي الحسب والنسب، ولكن بثمن، مليونا ريال سعودي. استنجد أهل العروس بكبير عائلة الزوج، فخفض الزوج الثمن إلى النصف، قبضه وطلق.

يأتون للحصول على شهادة جامعية، ويغادرون ويغادرن بشهادة وزوج أحياناً، سوري من عائلة معروفة، تصاحب على فتاة أمريكية، طويلة صبوحة الوجه وبكفّ واحد ولدت به. تردّدا إلى مقهى الأنكل سام، هو ينهمك بحل لغز الكلمات المتقاطعة في صحيفة الديلي نيوز

وهي تثرثر، تتصرف دون اكتراث لعاهتها الخلقية، فلا تحاول اخفاءها. استعملت المصعد معهما بالصّدفة، ومن دون تعارف بالكلام، كنا وجوه مألوفة من نفس المقهى، أبدت اعجابها بشعري الفاحم الأملس، وشغلني الخجل من مبادلتها الإعجاب. تزوجا وسافرا إلى أمريكا. تقولوا عليه فمن بكامل عقله يتزوج أمريكية شوهاء، إلا لمكسب، واقله بطاقة إقامة خضراء. اتفقا على الزواج، لبناني وسورية، السورية مسكونة بشخصية أمها الطاغية. تقضي الأم صيفياتها في فندق مصر في جبل لبنان ويأتي المعجبون من مصر وغيرها لرؤيتها، مرضت ودخلت المستشفى، أحد زوارها الملحق العسكري في سِفَارة السُّعُودية، رقوه لمنصب أمني كبير بعدها، تباهت أمام سيدة سُعُودية بحصولها على الجنسية السُّعُودية بلا شرط إقامة أو زوج سعودي. سافر العريسان إلى قبرص لقضاء أياماً وليالي من العسل، ما أن دخلا الفندق حتى نشب قتال عنيف بين الأتراك واليونانيين، وبعد قضاء بضع ليالي عادا ليتطلقا. سرت إشاعة عن عجز العريس من أداء واجباته، وصار

مادة للتندر بين الطلاب. تخلت الأم والأخوة من زوج الأم عن الشابة المطلّقة، فتشردت في فرنسا، رأيتها آخر مرة في دمشق خلال تشردي أيضاً، كانت تتعيش من قراءة البخت بأوراق التاروت.

على النقيض من قريبه الحاكم كان زميلنا البحريني طويلاً مربوعاً وودوداً، صدف وجود قريبة له في الجامعة فتحابا وتزوجا، زمن سعادتهما الزوجية قصير، أدمن الزوج على الخمر مثل والده، وأنهى حياته منتحراً كوالده أيضاً.

سميح لبناني من عائلة عريقة في السياسة، على عكس أقاربه لا يشتغل بالسياسة أو غيرها، فلا رئاسة وزارة أو نيابة أو حتى تجارة، اختار أقصر الطرق وأيسرها، تزوج من امرأة ثرية، لتنفق من مالها عليه، أقاربه يصفونه بالظريف ويتهمون زوجته بالجنون .تضطهده فيصبر. أفاق يوماً على سيل دافيء غمر وجهه، فتح عيناه ليرى زوجته ممتطية صدره وشبه عارية، وتأكد له بأن السائل الدافيء ليس بالماء .

الحيوانات مثل الكلاب وغيرها ترسم حدود منطقتها بنفس الطريقة، وهي فعلت ذلك لنفس الغرض.

ما أن وصل لبناني من أمريكا حتى من دون افتح يا سمسم أو غير سمسم أو دعاء أمه تفتحت له البواب، في الجامعة ومكاتب أساتذة ووجد عملاً في صحيفة رجعية تمولها دول النفط القبلية، لازمه كالظل طالب إنكليزي ذو حظوة هو الآخر. طلب مني إعداد مراجعة عن كتاب حول فلسطين فأعددته ونشره من دون مقابل. فاجأني باتصال هاتفي خلال عطلة قضيتها مع عائلتي في بغداد. زرته في الفندق وكان محل حفاوة من البعثيين. نال شهادة عن رسالة في القضية الكردية، ليدّرس في جامعات أمريكا وتستضيفه البرامج الإخبارية في القنوات العربية الرجعية والتقدمية فيدلي بتحاليل وأراء باهتة لا شرقية ولا غربية.

مواد السنة الأخيرة وبعد هجراني الطب سهلة، واستغرق التحضير لها القليل من الوقت، والاستثناء الوحيد مادة درسها الدكتور حنا بطاطو. كنت أتحاشى لقاءه، لأنه وفي معظم الأحيان استوقفني ليسأل

عن أحد أقاربي المشتغلين بالسياسة، ولأن اختلاطي بأقاربي محدود حرت الإجابة على بعض أسئلته، كان يعد موسوعته عن العملية السياسية والأحزاب في العراق. لطيف بشوش خارج الصف وصارم داخله. اعترض طالب أمريكي على تدريس الفكر الماركسي لأنه في رأيه غير مفيد فنصحه بترك المادة. حرصت على استذكار دروسه لئلا يسألني فأحير في الجواب. ذاكرته قوية في حفظ أسماء طلابه، يستدعي الواحد إلى مقدمة القاعة، ويطلب منه الجلوس على كرسي فارغ مخصص لذلك، سماه طلابه كرسي الاعتراف أو ربما الرعب، ثم يطرح عليه سؤالاً واحداً، ويصرفه بعد الإجابة. حل دوري للجلوس على كرسي الرعب فلم أفشل.

أكملت متطلبات التخرج، لكني ازدريت الشهادة، فرفضت حضور حفل التخرج، لأنه تقليد أمريكي أجوف، حتى شهادة الدكتوراه استلمتها بالبريد لا باليد، لأن الاحتفال في كنيسة ومن طقوسه الركوع أمام مانحها. تخرجت أنا وآخرون، ركب البعض منهم مصعد الطموح

فبلغوا ذروة السلطة، وخرجوا منها بسواد السيرة. فتحت الكتب السنوية للجامعة فوجدت صور الأفغان حامد كرزاي وأشرف غاني وزلماي خليل زاد واللبنانيين سمير جعجع وفؤاد السنيورة ورياض سلامة والأردني وصفي التل. لو سقط كلب في بئر تنجس ماؤها، ويتوجب شرعاً كما روي عن ابن عباس نزح الماء كله، فهل يكفي ماء البحر الأبيض المتوسط لإزالة النجاسات من جامعة الأمريكان؟ يتملكني الحزن عندما أقرأ بأن فلسطينياً انتخبه الطلاب ليكون رئيساً لمجلس الطلبة وكان يأمرهم بالتخلف عن الدروس ساعتين في ذكرى وعد بلفور فيذعنون شارك مع زعيمه عرفات في المفاوضات مع الصهاينة وعمل مع خليفته عباس.

تخرجت وتمنيت لو لم أتخرج، كنت أنوي إكمال دراستي العليا في نفس الجامعة، فاجتزت امتحان القبول، لكن الحكومة العراقية البعثية أصدرت قراراً يفرض على خريجي المرحلة الجامعية الأولى أداء الخدمة العسكرية الإلزامية قبل إكمال دراستهم العليا. هي نفس

الحكومة والحزب اللّذان سمى المغدور هاشم جواد انقلابهما بالغزوة المغولية، وقد برهنت الأيام صدق وصفه، إذ لم ينته حكمهم إلا والعراق خراب تنعقه غربان أمريكا وعملاؤها. نصحني ربيع بالحصول على جنسية لبنانية، وأخذني إلى بيت المحامي الذي دسّ أسماء عائلته في سجل عائلة لبنانية فمنحوهم الجنسية اللبنانية. استقبلنا في ملابس النوم وبادرني بطلب اثنتي عشرة ألف ليرة ليدفع منها رشى ويحتفظ بالباقي. أرخص من سعر سيارة أمريكية، لكنه ستة أضعاف ما دفعه ربيع وعائلته قبل عشرة أعوام. خرجت من بيت المحامي يائساً، وقد عزمت على السفر إلى بريطانيا للتحضير لشهادة محاسب قانوني رغم أنوف الحكام الظلمة. اشتريت بطاقة رخيصة على طيران إنترفلوج، فكادت الطائرة تسقط في البحر خلال عاصفة مطرية هوجاء. انتابتني نوبة ضحك بينما راح بقية الركاب يصرخون هلعاً ويصلّون ويبكون، أشبه بمشهد من فيلم رعب كنت فيه الشرير ولم ينقصني سوى العزف على أورجن كنائسي. بعد قضاء أيام في لندن أعادني الفَرْق من النقمة

العراقية إلى بيروت ومنها إلى ستة أشهر مريرة في الجيش العراقي الذي حوله البعثيون إلى ملحق لحزبهم الفاشي، استقبلوني بإحالتي إلى محكمة عسكرية لأني لم أحضر الفحوص السنوية للجندية، برأتني المحكمة لأني كنت طالباً وحكمت على متهم بالتهرب من الخدمة اقتادوه مكبلاً بالسلاسل بسنين عدّة من الحبس. من حظي السّيء أيضاً قرار الحكومة البعثية في ذلك العام إنزال رتبة خريجي الجامعات مثلي من ضابط احتياط إلى جندي، في الوقت الذي جندوا البعثيين الفاشلين في الدراسة ضباطاً.

بعد ستة أشهر شاقّة في الجندية أفلست الحكومة العراقية، أو هكذا أشيع، ففرضت مبلغاً يسيراً بدلاً عن خدمة الاحتياط، فسارعت لدفعه والعودة إلى الجامعة.

السنة الخامسة

فرّرت من غربة إلى غربة، أسوءهما غربة في وطنك، لا تحتمل وليس لها علاج، بلغت أرذل العمر لكن غربتي في عز شبابها، وفي كل مرة أعود ممنياً نفسي بزوالها، فأجدهم ينتظروني في المطار وفي المنزل والدوائر الحكومية والمحاكم العسكرية ومعسكرات التدريب والجامعات والحقول والحدائق العامة والشوارع، كلهم يرددون أو تنطق ملامحهم: لم عدت يا أحمق؟ سنريك نجوم الظهر! حتى غدت العودة كابوس صحو، وفي المنام أرى نفسي هائماً في الشوارع حافياً وبملابس النوم، لذلك فضلت غربة لبنان على غربة بلدي.

أول أيام رجوعي إلى الجامعة اعترضني فلسطيني من عائلة معروفة. يسخرون منه لا من بدانته المفرطة أو تكلفه في الكلام بل من عادته في سؤالهم عن معلومة مبهمة لدى معظم الناس، يقرّون بجهلهم بها، فيعاقبهم بمحاضرة مطولة ومملّة عن الموضوع، يفتح الموسوعة البريطانية

كل يوم، ويختار معلومة منها لكي يستجوبنا عنها، يعطيه جهل الآخرين بها شعوراً بالتفوق والسموّ علينا. في تلك المرة لم يختبرني بل سألني عن الجيش العراقي، ولأنه فلسطيني وطني يهمه ذلك، وخاب أمله مرتين الأولى بعد وصفي لما شاهدت وسمعت، والثانية عندما اتجه الجيش شرقاً وجتوباً بدلاً من غرباً صوب فلسطين المغتصبة.

أربع سنوات جامعية أقنعتني بأن القاعدة الذهبية للنجاح أن تبذل أقل جهد وتأخذ بأقصر طرق، داري كسلك وضحالة فكرك وإنتاجك الباهت بالمظهر الكاذب والتفلسف والمكر وحتى البلطجة، لتدخل الطب ابقي على مصابيح غرفتك مضاءة طيلة الليل وارشي الأستاذ بصور إباحية وفني المختبر بالنقود وتوسل وساطة المتنفذين واجتذب زميلك النبيه بمجلة بلايبوي مشتراة من مكتبة في شارع بلس ليعينك في الدراسة. بصق الطالب العراقي الكردي على أستاذه الأمريكي في كُلْيَة الزراعة باعترافه فنجح وتخرج، هو نفسه الذي اختطف طعام زميله الأرمني الأعرج في رحلة إلى مزرعة الجامعة، وشارك في نشاط

كندي يعمل في واحدة من أكبر شركات السفر والسياحة البنانية، وتبين بأن الكندي محتال اختلس عشرات الآلاف من الليرات من الشركة وهرب. أما ذلك الطالب البارع الذكي فقد اختار طريق الجِدّ والاجتهاد فخسر الدراسة ونفسه، وانتهى مفترشاً الرصيف أمام مقهى الأنكل سام مثل شحَّاذ، فيحضر أبوه بعد حين لينجده من نفسه. أدمن على المخدرات، حتى يأسوا من توبته، أودعوه العصفورية مرتين قبل اختفاءه.

قلت للدكتور رالف كرو أمام طلابه بأن الجامعة لا تشجع الفكر المستقل والاختلاف في الرأي. تألم من كلامي، وحاول اقناعي بالعكس، لكني تشبثت بموقفي، مع الزمن تتولد رابطة شبه عائلية بين الأستاذ والجامعة، ينغّصه انتقادها لأنه بصورة وأخرى يمسه هو، قضى كرو سنين في جمع المعلومات عن سوريا، حتى اعتقد بعض الطلاب بأنه يعمل لمصلحة المخابرات الأمريكية، ونشر كتباً ومقالات طواها النسيان، فلا هو أبدع ولا طلابه.

اتهموا شارل مالك بأنه المسؤول عن طرد الدكتور صادق جلال العظم بسبب أراءه الإلحادية التي نشرها في كتابه نقد الفكر الديني. شارك في لجنة صياغة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ودافع عن حقوق الفلسطينيين في الأمم المتحدة، وبعد عودته إلى لبنان وتوظفه في الجامعة الأمريكية اختار دور الأب الروحي للجماعات المسيحية الرجعية الفاشية التي عادت الوجود الفلسطيني في لبنان ودعت إلى تصفيته، وعملت على ذلك خلال الحرب الأهلية. أشاعوا بأنه ضغط على أستاذ ليرتد عن الإسلام ويعتنق المسيحية. من هو شارت مالك الحقيقي؟

أجازوا بدعة سموها "زاوية المتكلمين"، استنسخوها من الأصل الإنجليزي في الهايد بارك، ليبدي الطلاب أراءهم وينفسون عن احتقان عقولهم ونفوسهم. حضرت الاثنتين، كان خطباء الأصل شبه معتوهين توقعوا قرب موعد القيامة أو بشروا بعقائدهم الغريبة، ولم أسمع رأياً ذي قيمة في النسخة الرديئة.

ألغت إدارة الجامعة حفل التخرج للعام 1971 لأن الطلاب خرجوا عن طوعها باحتجاجهم على زيادة الأقساط الدراسية. الأستاذ الأمريكي من أصل يوناني الذي تصورني شبيهاً للمسيح عليه السلام قالها بصراحة:

– لا يقبل أستاذ أمريكي – أو لعله قال أجنبي – بالتوظف في هذه الجامعة إلا بعد يأسه من الحصول على وظيفة في جامعات بلده.

لم يستثن نفسه فلعلها خلاصة تجرِبة شخصية. عينوه رئيساً لقسم الإدارة والعلوم السياسية. طلب منا تقريراً قصيراً، فاخترت مراجعة كتاب ضد دوهرنك للمفكر الماركسي فردرك إنجلز، لا اعتقاداً بالشيوعية التي مقّتها مذ وضع معلم شيوعي عراقي في الابتدائية حبل السحل في رقبتي لأني ابن زعيم قبلي، بل نكاية بالجامعة وغالبية أساتذتها المولعين بالغرب الاستعماري والرأسمالية الاستغلالية، واكتفيت بتصفح الكتاب وكتابة تقرير هزيل، كانت بلطجة فكرية فكافأني بدرجة ممتازة لم أستحقها.

هل رفضوا توظف الأستاذ المفكر إدوارد سعيد لأنه لا يرقى لمستواهم العلمي أم أنه حسب معايير الدكتور اليوناني يتفوق عليهم؟ اختار سعيد الالتحاق بالجامعة في 1971-1972، ليسكن لبنان ويساهم في إثراء المعرفة والفكر فيها، لكنه تعرض لمعاملة سيئة لا تصدر عن مؤسسة تربوية رصينة، ويذكر تيمثي برينان في كتابه عن سيرة إدوارد سعيد وهو واحد من عشرات الكتب عن المفكر اللامع بأن أساتذة الجامعة عاملوه ببرود ربما بسبب الحسد، وتجاهلوا استعداده للتدريس فيها من دون مقابل، وحتى أنهم وضعوا عقبات سخيفة أمام حصوله على بطاقة استعمال المكتبة، ويؤكد برينان بأن دوافع هذه المعاملة نابع من (حسدهم) للصيت الأكاديمي لأدوارد سعيد وصلاته بالجامعات المرموقة، ووثق كاتب سيرته بأن سعيد سجل تقييمه للجامعة الأمريكية في بيروت في رسالة إلى زميل له مصري:[*]

[*] Timothy Brennan, 2021. **Place of Minds: A Life of Edward Said**. New York: Farrar, Straus and Giroux, p. 135

إنها مكان ميؤوس منه وحتى مضرّ، ومن أجل الحفاظ على قدراتي العقلية لن يكون لي أي تعامل معهم. لا يوجد أحد على الإطلاق يؤدي عملاً يستحق الاهتمام، وأي أحد (أستاذ) جيد يوضع على الرّف ويخصى (أكاديمياً) أو يطرد بأي أرخص (الوسائل).

عاد إدوارد سعيد إلى أمريكا ليدرس ويؤلف في أفضل جامعاتها.

للجامعة أسم أجنبي وأسوار عالية وأبواب حديدية محروسة، توحي بأن عالمها الداخلي منفصم عن الخارج، لكنّ جدرانها السميكة كانت برقّة جلد أبو بُريص، وأبوابها الموصدة نوافذ مشرعة على الخارج. وكل حدث هام طرأ خارجها نفذ إليها من مسامّ الجدران ومن بين فوهات الأبواب الحديدية المزخرفة، فانشغلت به النفوس، حتى غدت المظاهرات والإضرابات ظواهر معتادة، فلم توقفها تهديدات الإدارة الجامعية ولا الشرطة المدججين بالهراوات وقنابل الغاز المسيلّ للدموع.

تشغلك أخبار قتال الجيش اللبناني للفدائيين الفلسطينيين عن هموم الدراسة وصلافة الأساتذة ولؤم الطلاب وشجون الوطن وأهلك، تتجدد مآسي الشعب المظلوم في كل عام فتود لو كان لديك أكثر من حجر ترمي به سِفَارة أمريكا أو هتافات مؤيدة في مسيرة غاضبة أو لعنات تصبها على الظالمين. تربّص الجيش والشرطة بمخيمات البؤس الفلسطيني، وحولها المكتب الثاني إلى غيتوهات، أحرجوهم حتى نفذ تحملهم وانفجر العنف ليسفكوا دماءهم، لأن كلمة الكتائبي الحقود بيير الجميل مسموعة عند الجيش اللبناني والقوى الأمنية، ورشيد كرامي بلا حول ولا قوة فيعتكف. أفرزت الاحتجاجات المتكررة نخبة طلابية جديدة، لم يمتلكوا سيارات السباق ولا البدل المستوردة أو قداحات دوبونت الذهبية، تصدروا التجمعات، وألقوا فيها الخطب الحماسية، وقضوا ليالي اعتصاماً داخل مباني إدارة الجامعة ومنزل رئيسها، وتكونت صداقات بينهم وبين طالبات شاركن في النشاطات الاحتجاجية. أعجبت فتاة بحرينية بطالب فلسطيني، ناضل في سبيل

القضية على مقاعد الدراسة، ثم انضم إلى حركة فتح، بعد انتقالها من الأردن إلى لبنان في أيلول الأسود، وبعد سنين انشق منها اعتراضاً على اتفاق أوسلو. للبحرينية أخت طالبة أيضاً، ورائعة الجمال مثلها، في نظر العاديين أمثالي لا الشعراء ومرهفي الإحساس، الوجهان الجميلان قطعتان من الرخام البارد، لم أصدق بأنهما طبيعيان، فلا بد أن يكونا قناعين أخفيا تحتهما مشاعر مؤلمة. لو توطدت معرفتي بهما لربما كشفا لي عن مكنون نفسيهما. قصة عائلتهما معروفة في مجتمع الجزيرة الصغيرة .والدهما شيخ متدين. في كل غرفة وضع جرساً كهربائياً يدقّه كلما حلّ وقت صلاة، والدتهما شابة جميلة، ملّت حياتها مع زوجها الكهل، فوجدت البديل الجاهز في سائقهم الشاب، هربت معه وتزوجته بعد طلاقها من الأب .عاشا في فقر، وشوهدت تزور ابنتيها سراً وتخرج حاملة ملابس مستعملة لها ولزوجها ولأبناءهما. أرسلهما الأب للدراسة في لبنان حتى لا يذكّرانه بفضيحة والدتهما، فليس من المعقول أن يقبل دراستهما في جامعة أمريكية وفي بيئة مفسدة؟ تعمدت

الفتاتان مخالفة التقاليد المحافظة، ارتديتا الملابس القصيرة الفاضحة، وشوهدا يوماً واقفتين على جانب طريق الجبل وفي فستانين قصيرين يؤشران للسيارات المارة للوقوف طلباً لنقلهما من دون مقابل .العلاقة مع المناضل الفلسطيني لم تدم طويلاً. غادرت الأختان إلى لندن، وتزوجت الكبرى من بريطاني وعادت بعد سنوات لتسترزق من بيع الستائر، أما الثانية فقد اختفت تماماً ولم يعرف مصيرها.

اجتذبت حمى النضال أربعة من طلاب البحرين أيضاً، أخوان وأختان، الأختان من عائلة ثرية، انضموا لجبهة جورج حبش، كانت قد بدأت انتفاضة ظفار في عمان. أرسلهم ليشاركوا في القتال، تسلّلوا من الحدود المشتركة مع جمهورية اليمن الجنوبية. روت الأخت الكبرى معاناة الحياة مع الثوار، كانوا قبليين لا اشتراكيين أو شيوعيين، فرضوا عليهن النوم في العراء واستأثروا هم بدفء الخيم، تزوجت من عماني وأنجبا طفلتين. نتيجة البرد الشديد ورداءة الطعام أصيبت بمرض عضال مزمن، انتهى الزواج وفشلت الثورة. ثراء ومكانة

عائلتها الاجتماعية لم تشفع لها عند الحكومة التي منعتها من العودة. سكنت الأختان في قبرص، ثم تزوجت من أحد الأخوين الثائرين. شاهدتها في دمشق، زارتها لأيام، جمعنا المنفى وألّمتنا الذكريات. أردت زيارة زوجها الزميل من أيام الدراسة، فنهتني عن ذلك. بعد تردد طويل استرحمت الملك ليعفوا عنها ويسمح بعودتها فوافق، كانت أختها قد سبقتها. توفيت بعد ذلك بسنين نتيجة مضاعفات مرضها المزمن من أيام النضال في ظفار.

قال لي أبو سيف بأنه جاء ليحذرني .جلسنا على مَقْعَد أمام مبنى الوست هول في الجامعة، أبو سيف شيوعي هارب من العراق، بعد إقامة مؤقتة في سورية دخل لبنان مع الفدائيين الفلسطينيين. أخبرني بأن تصرفات العراقي بهجت مريبة، ويشكّون بأنه جاسوس صهيوني، وقد وضعوه تحت المراقبة، بعد مدّة من سماع تحذير أبي سيف بزمن جمعت من ذاكرتي الأدلة التي تدين بهجت، ودونتها في رواية صحن بامية مع خائن.

تعرفت بجان دمو، شاعر عراقي من دون ديوان مطبوع، يبحث عن أسلوبه الشعري الخاص، نزح من بلدته في الشمال ليسكن بغداد، قضى ليالي في شقق وغرف شعراء مغمورين مثله، وإن لم تسعه نام في مداخل المباني، ترك التشرد وسوء التغذية بصماتهما على جسمه، غارت عيناه وشوّهت يديه أورام صغيرة، اعتاد مصّها، لعله تعودها في ليالي البرد والجوع مثل الأطفال الصغار. طباعه حادة وشتائمه حاضرة. يشتمك ببذاءة سوقية شارع الرشيد ثم يقهقه ليطفأ غضبك. عرّفته على طلاب وبعد أول شتيمة صار محبباً لهم. أسكنته في شقتي أياماً وأهديته بعض الملابس، أعادها لي بعد أيام لأنها فضفاضة، وعثرت في جيب سترة على صورة لشاب مع فتاة عارية. الشاب ليبي والفتاة أمريكية من أصل لبناني، توفي والدها فجاءت هي ووالدتها لتطالب بحصتيهما من الميراث. زودهما الليبي الصعلوك بالحشيش والمخدرات مقابل خِدْمَات جنسية من المرأتين. ادعى جان بأن الفتاة تتناول المخدرات بشراهة فتفقد الوعي فلا تعرف من رفيقها في الفراش.

اتفقت مع زملاء على عقد أمسية شعرية لدمو، لمساعدته بمبلغ من المال. في سطح إحدى المباني وقف جان ليلقي قصائده. بعد أول شطر انتابته نوبة ضحك، فتوقف ليصف شعره بأنه ترهات أو كلمة شبيهة. حصل على مبلغ قليل من دون مقابل شعري. أتاني يوماً برزمة أوراق باللغة الإنجليزية، اتفق مع صحافي بارز في ملحق صحيفة النهار على ترجمتها، واشتكى من ضيق الوقت، فأخذتها وترجمتها له، وقبض هو المكافأة الصغيرة. تكرر تكاسله وتواكله علي في التَّرْجَمَةً، وكان الصحافي اللبناني الكبير يستلم التَّرْجَمَةً، ويدفع القليل من الليرات، وينشر المادة تحت اسمه. الخروج إلى سورية والعودة منها أضمن طريقة لتجديد الإقامة في لبنان لأشهر. تحداه كتائبي من أصل درزي بمنعه من العودة، وتبين بأن مكتب الجوازات اللبناني عند الحدود خاضع لإرادة حزب القمصان السود. رفضوا السماح له بالدخول مجدداً فعاد إلى العراق وحياة التشرد في شارع الرشيد والأزقة المتفرعة منه، ثم هاجر إلى أستراليا، وتعجبت لأنهم قبلوه ورفضوا طلبي للهجرة من قبل،

وأستبعد مخاطرته بركوب ما عرف بمراكب الموت. بعد سنين توفي ودفن في المهجر.

كان العراقي الخائن أحد جليسي باسل الكبيسي عند الطاولة المطلة على شارع جان دارك والمواجهة لمطعم عمو الزعيم لبيع الفلافل. في اليوم التالي أغتال الموساد المناضل الكبيسي في باريس.

توفي عبد الناصر، للمرة الثانية، كانت الأولى في حَزِيران 1967.

ادعى العراقي الخائن بأن التغيير سيأتي من الأزقة الخلفية في أمريكا، حيث يعقد الهبيون الرافضون لقيم وتقاليد البورجوازية الغربية كوميوناتهم ويدخنون الماريجوانا ويتناولون حبوب أل أس دي المهلوسة ويمارسون الجنس. كان هو أيضاً يجلب الحشيش من البقاع ويوزعه امتثالاً لأسياده، وتعلم إعداد الكليجة العراقية ليضع داخلها حبوب الهلوسة التي يركبها له كيميائي فاسد مرتشي في جامعة رديئة. ستخمد العاصفة المؤقتة هنالك، لتظهر نذر عاصفة مهلكة توشك على الهبوب في لبنان. فكل حدث خارجها بدأ أو انتهى عندها بجرة قلم

شرير. لا أعني بذلك خربشة أفكار أولئك المنظرين المترددين بين مقهى الدوليشته فيتا في الروشة والهورس شو في الحمرا، والمعرجين على مطعم فيصل في رأس بيروت، التي يلمّها الندل آخر الليل ويطرحونها في القمامة، بل مكايد النافخين في شرر الطائفية علناً وفي الخفاء والمتربصين بالتواقين للحرية الحقة.

شارك أحد طلاب الجامعة في خطف طائرة، سمعت بأنه سعودي وابن سفير. وشاركته في العملية فتاة جميلة. تظاهرا بأنهما عروسان، وارتدت هي فستان زفاف. على الطائرة تقمّص الدور السعودي واغتنم الفرصة السانحة وتمادى في تمثيل دور العريس الجديد.

إبنة سفير سعودي سابق لا تناضل في السياسة لأن حماسها في مكان آخر. جلست مقابلي في مكتبة جافث الجامعية، عادة ما استعمل إحدى المقصورات المخصصة لطلاب الدراسات العليا، لكن كتاب قرّره الأستاذ غير متوفر للاستعارة فاضطررت إلى استعمال القاعة العامة لقراءة الكتاب المحجوز. ألقيت عليها نظرة سريعة وعدت للكتاب،

علق في ذاكرتي سمُر بشرتها، نقي لا يشي بدماء أفريقية في سلالتها. نظراتها جريئة، لا تراها عادة في فتيات الخليج، في ذلك الزمن في الأقل، وربما كن يتصنّعن الخجل والحياء. بعد قليل شتّت انتباهي خربشة من ناحيتها .رفعت أنظاري فرأيتها تحفر على الطاولة بقلمها. ألح علي الفضول لمعرفة ما تخط بقلمها: أنا horny، كلمة لم تمر علي من قبل، وصرف انزعاجي من سلوكها التفكير في معناها المحتمل، وأهون علي نسيانها من البحث عن معناها في قاموس أكسفورد الكبير المنصوب على منصة خشبية قريبة، لأن فتح القاموس يعني جهلي بمعنى كلمة إنكليزية، وبشهادة عشرات الطلاب الحضور، وغروري وخجلي وعقد طفولية حرموا علي ذلك. مرّ عام قبل استرجاعي ذلك المشهد. كان سلوك الفتاة الجريء آخر ما تتوقعه من سُعُودية، وأخمن بأن زميلنا في الجامعة علي عيد اندهش هو الآخر من نزعة الإجرام لدى الأمير السعودي الذي التقاه مصادفة في مقهى أو حانة، لم تتطرق التقارير الصحفية لما دار بينهما من نقاش أو جدال،

أفضى إلى طعن السعودي لعلي عيد. قبضت الشرطة على الأمير الجاني وأودعوه السجن أو هكذا كتبت الصحف الممولة من السُّعُودية وأخواتها. لو كان فعلًا محتجزاً في زنزانة فلا بد أن تكون بخمس نجوم. أسقط علي عيد حقّه في القضية مقابل تعويض مالي كبير. صادفته أمام مطعم أليسار وكان يتوكأ على عكازة. أسس بعدها حزباً لطائفته العلوية وانتخب نائباً في البرلمان اللبناني، ولو لم يطعنه الأمير السعودي المجرم الأحمق لربما لم يدخل زميلنا معترك السياسة ويتحالف مع الجبهة المناوئة للسعودية.

حرص طلاب كل دولة عربية على تكوين تنظيم لهم سمّوه غالباً اتخاداً للطلبة، إلا الطلاب السعوديين وبأمر من حكومتهم. رفضت المسمّى لارتباطه بأحزاب ونظم معادية وارتضت لهم مصطلحاً سخيفاً وهو صندوق الطلبة، كانت السِّفَارة العراقية في لبنان "تصندق" المعارضين، وتشحنهم إلى السجون العراقية ومصائر مخيفة، لذلك كان العراقي قبل دخوله مبنى السِّفَارة في الرملة البيضاء يصطحب قريباً أو

زميلاً لينتظر خروجه وإبلاغ الشرطة لو لم يخرج. الصندوق السعودي تابع أيضاً لسفارة بلادهم، وتحت رِقابة مشدّدة من الملحقية الثقافية، ويودع الداخلون إليه انتماءاتهم وميولهم السياسية خارج الباب قبل دخوله، لذلك فضّل الطلاب السعوديون التردد على اتحادات طلبة دول عربية أخرى.

تجنبت أميرة سُعُودية الاختلاط بالطلاب السعوديين، فلا تتردد إلى الصندوق، وتتخوف من الصندوق السعودي الكبير، ويزداد خوفها كلما اقترب موعد تجديد جواز سفرها، لأنه يتطلب السفر إلى المملكة الصندوق، ولا يفارقها القلق حتى تحلق بها الطائرة عائدة إلى بيروت. صارحت زميلتها السُّعُودية بأنها تحسدها لأنها مواطنة عادية. استعانت بي لملأ طلبات القبول للدراسات العليا في الجامعات البريطانية العريقة. حيّرني طلبها لأنها درست المرحلة الثانوية في لبنان، وتتفوق علي في مهارات اللغة الإنجليزية. دونت في حقل مهنة والدها ملك سابق، فقبلتها كل جامعات الإمبراطورية العجوز. هل

حرضها الخوف من صندوق عائلتها وعقدة تجديد جواز سفرها للزواج من أجنبي.

عندما لا يوجد الطلبة السودانيون في إتحادهم تجد بعضهم جالسين أمام دكان أبو محمد في الشارع الفرعي الموازي لشارع بلس .يقصدونه في الأمسيات لشرب الجِعَة وتناول صحون البيض والباسطرمة التي يعدها أبو محمد. بينهم بعثيون التحقوا بالنظام الحاكم في العراق وأثناء سفرهم إلى السودان في 1971 لغرض الإعداد لانقلاب سقطت أو قيل أسقطت طائرتهم العراقية فوق الأراضي السُّعُودية.

قلة من الطلاب يحضرون في المركز القومي العربي، إلا إذا كانت أمسية شعرية لنزار قباني. تمتلأ القاعة الصغيرة بفتيات معجبات بشعره الجريء وبشبان يأتون لرؤية فتيات عن قرب ومحاولة التعرف عليهن.

وصلتني استغاثة من أخ لأب، أو هي أمر بقناع استغاثة: والدنا شاخ ويرفض مدّنا ببذور ومصروف لزراعة الأرض، اِقدم قبل فوات

الآوان! اضطررت لقطع دراستي. قبل يوم السفر شاهدت مهزلة انتخاب سليمان فرنجية على التلفاز. بعد فرز الأصوات صعد فرنجية الدرج، وقبل بلوغه المنصة لأداء القسم انتبه لكلام صادر عن صبري حمادة رئيس مجلس النواب، وكأنه أراد التأكد من نتيجة عدّ الأصوات، فتوقف الرئيس المنتخب وجذب جانب سترته كاشفاً عن المسدس المخبأ تحت حزامه، فتدارى حمادة الموقف ليتم الانتخاب. في سيرته لا يعلق في ذهنك غير مجزرة كنيسة مزيارة.

حملت حقيبتي وغادرت إلى الغربة الأخوف.

السنة الأخيرة

بعد أشهر من العناء والقهر والحر الشديد تبين بأن استغاثة أخي غير الشقيق مجرد خدعة، انطلت علي. بعد استراحة قصيرة وإنصات لتحذيرات والدتي من تناول أي طعام أو شراب في بيت الأخ، لأنهم من قبل أطعموا أو سقوا والدنا مخ الحمار فأصيب بالخرف المبكّر انحدرت إلى المزرعة الريفية. وزّعت البذور والسلف من عائدات السنة الماضية ومن جيبي أيضاً .اعترضني أخ غير شقيق آخر حاملاً هراوة، أراد إخافتي أو قتلي. تركت المزرعة لاعناً الزرع وأهله وعدت إلى جوار والدتي الفرحة بنجاتي من محاولة القتل ومخ الحمار.

استولوا على معظم الحاصل وما تبقى سرقه قريب باعه واحتفظ بالثمن. اضطررت إلى بيع سَجادات بيتي التي اشتراها والدي من إيران وبسعر بخس لتاجر مستغل، وعدت إلى لبنان بالسخط والخيبة وضياع عام من دراستي. وطني بارع في استلاب سني عمري ورزقي وسكينتي.

تأخرت عن بدأ الفصل الأول فتأجل دوامي إلى الفصل الثاني لولا وساطة ندل يعمل في مقهى الأنكل سام. لاحظ ملامح الأسى على وجهي فسألني وأخبرته. بعدها بوقت قصير دخل مدير التسجيل، مع فنجان القهوة حدثه الندل الطيب بمحنتي وتخوفي من خسارة عام آخر، فرقّ قلبه ووافق على التحاقي بالفصل الأول. ذلك الندل الذي لا تربطني به قرابة أو دين أحن علي من أولئك الأقارب الذين خدعوني وسرقوني وأضاعوا عاماً من حياتي واضطروني لبيع بعض أثاث بيتي مثل المفلسين.

كان بهجت العراقي العميل الصهيوني متلهفاً لإبهاري بأخباره. في غيابي اقام كوميونياً هبياً في شقة استأجرها في المبنى الذي أسكن فيه، ودعا لها جمعاً من الطلاب، وكان يزودهم بالحشيش والمخدرات الأخرى، ومن ضمنهم ابنتا سفير سعودي متقاعد. إحداهما تلك التي حفرت على طاولة المكتبة كلمة جهلت معناها حينها، تبين بأنها كتبت بأنها مهتاجة جنسياً، وهي دعوة صريحة لممارسة الجنس

معها، ودفعتها شهوتها للانضمام إلى كوميون الجاسوس بهجت، وجلبت أختها معها، وقضيا ليالي في الشقَّة الكوميون، حتى حضر والدهن ليسترحم بهجت بإخراجهن من وكره ليعودن إلى بيتهن ودراستهن. وصف تذلّل اباهن مع ابتسامة خبيثة. انتبه صاحب المبنى إلى كوميون بهجت، أو ربما اشتكى الجيران من الأصوات الفاضحة ورائحة الحشيش النفاذة. طرده صاحب المبنى من الشقة فانفض الكوميون الهيبي.

اجتذب مجلسنا في مقهى الأنكل سام طالب سوري، يكبرني بعشرة أعوام، متزوج وله ابنة، ترك عائلته في دمشق والتحق بالدراسة في الجامعة. سمّيناه أبا صياح من وراء ظهره. اعتاد المجادلة بصوت طاغي. ادعى بأن عائلته خسرت معظم ثروتها المستثمرة في الشركة الخماسية بعد تأميمها، لذلك جاهر في مناسبة وغير مناسبة عن كرهه الشديد للحكومة البعثية، وتمنى عودة الانفصاليين. أبو صياح طالب مخضرم لا يطيق الحياة خارج قاعة المحاضرات ومجالس لهو الطلاب.

الضحيتان زوجته وابنته. زرناه في شقته في دمشق. حسده ربيع على زوجته الجميلة وبيته الفاره، وتعجب من تركه حياته الطيبة من أجل شهادة في العلوم السياسية لا تغني ولا تشبع. سمع بأن زميلنا القطري الخريج قبل سنة أو سنتين استوزر وغدا من أقطاب الإمارة الصغيرة فطمع أبو صياح بوساطته للحصول على وظيفة مجزية، فكتبنا رسالة إلى زميلنا الوزير نترجاه تلبية طلب أبي صياح فلم يصلنا رده، حصل القطري على شهادة الدكتوراه من جامعة بريطانية وأثيرت حولها شبهات، ادعى أحدهم بأن أستاذا أعدها له. بعد انقلاب داخل العائلة أقيل من الوزارة. شاهدته بالصدفة في لندن جالساً مع شاب على مَقْعَد خشبي في متنزه الهايد بارك. عرفني من دون تذكير، كان يستمع للأغاني أو الموسيقى من جهاز بوكمان، سألته عن أحواله فأجابني بأنه لا يرغب بأكثر مما لديه من راحة بال وزوجة حسناء.

بعد تخرج أبي صياح من الجامعة التحق بجامعة أكسفورد للتحضير لشهادة الدكتوراه. عرف بوجودي في إنكلترا فاتصل وزارني.

طلب مني مساعدة مالية فتخوفت أن تكون أكثر من طاقتي المحدودة، وعجبت لأنه اقترض مني عشرين جنيهاً فقط، أعادها لي بعد زمن قصير. انقطعت أخباره حتى شاهدته يوماً على شاشة القناة البريطانية. أدلى بتصريح نيابة عن السِّفَارة السورية بصفته ضابط أمن السِّفَارة. أبو صياح الذي دوخنا بلعناته على النظام البعثي سارق ثروة عائلته تحول إلى ناطق باسم السِّفَارة بصفة أمنية. خامرني شك بأنه ومنذ أيام الدراسة في الجامعة الأمريكية كان موظفاً استخباراتياً لجمع المعلومات عن الطلبة السوريين في الجامعة وغيرهم.

سلّم ثم سحب كرسياً وجلس قبل أن يعرفنا بنفسه. كان تواقاً ليقص علينا الدراما اللبنانية التي يعيشها. أبوه درزي ووالدته كاثوليكية، تبرأ الدروز من أبيه ومنه ولم يقبله الكاثوليك. كانت الفجوة بين الطوائف اللبنانية الساكنة في خيم النايلون قد توسعت لتصبح هاوية بعد حين، ولا قنطرة بينهما ليتشبث بها. لم يخف عنا بأنه انضم لحزب الكتائب نكاية بجماعة أبيه الدروز، لأن الولد لأبيه، بدا لي

وكأنه هو الآخر غارق في غربة لأن الوطن اختزلته الطوائف، ولو نبذتك الطائفة فلن تجد مكاناً لك في وطن الطوائف، وصارحناه بميولنا السياسية الرافضة لحزبه فلم يكترث. دخل في مُشّادة كلامية مع الشاعر جان دمو، فتوعده الكتائبي بمنعه من الإقامة في لبنان، وبالفعل رفض مكتب الجوازات عند الحدود مع سورية عودته إلى لبنان، فحرمنا من أشعاره الغريبة وشتائمة المعتادة، وتأكد لنا بأن للدرزي الكتائبي نفوذ وكلمة مسموعة أو لعلها مصادفة.

لم أكن أنا وزملائي المترددين على مقهى الأنكل سام نشطاء سياسة خطيرين ليرسل حزب الكتائب أحد منتسبيه ليتجسّس علينا، لكني كنت مستفزاً، أشتري بين الحين والآخر الصحف الشيوعية من بائع الجرائد الواقف بجانب مقهى فيصل لمجرد أنهم أشاعوا بأنه مخبر للمكتب الثاني، ولا يفوتني عرض لأفلام من الدول الاشتراكية في سينما كليمنصو، وتأبطي كتاب ماوتسي تونج الأحمر لدرس الأستاذ الأمريكي الغاضب، والحجارة التي رجمت بها السِّفَارة الأمريكية، استحقت

عليها تصنيفي شبه الخطير في ملفي السرّيّ المحفوظ في مكتب الأمن في الجامعة. يصعد الدَّم إلى رأسي ويرتفع ضغط الدَّم لدى سماعي بالقيم الأمريكية ودفاعها عن الديمقراطية وحقوق الإنسان، وكانت حربها الوحشية على شعب فيتنام تكذيباً لتلك الادعاءات الفارغة، لذلك أخرجني أستاذ أمريكي دافع عن سياسة بلاده في تلك الحرب عن سكينتي، وإن اعترف بأن سياستها الخارجية محكومة أيضاً بمصالحها، لمجرد إغاضته اقتنيت نسخة بأصغر قطع من الكتاب الأحمر لماوتسي تونج، وتعمدت وضعها أمامي في الصف ليراها هو وبقية الطلاب. تصرّف الأمريكي كالثور البهيم المهتاج عند رؤيته اللون الأحمر. عند شرحه لكل موضوع في مادة الدرس توقف ليسألني بتهكم عما يتضمنه كتاب ماو عنه، وأجبته بما توفر لدي من معلومات عن الفكر الماركسي الماوي. بينما تهافت بقية الطلبة على تملّقه وإرضاءه بتكرار ما يرغب بسماعه ناكفته وأحرجته، كان من بين طلابه المفضلين فتاة سُعُودية توزع أفراد عائلتها ما بين موطنهم في نجد والبحرين،

عاون أجدادهم عبد العزيز آل سعود على احتلال الأحساء والقطيف والتنكيل بأهله، ونقلوا حقدهم الطائفي إلى البحرين. كانت صديقة لمصري يعلم فتيات كلية البنات الأمريكية الرقص، ثم غادر فورث محبتها سعودي، تزوجها ثم تطلقا. أتذكر بأني قلت للأستاذ ساخراً: لعلكم أيها الأمريكيين تعتقدون بأنكم تزّوجون فعلاً لقيم الحرية وحقوق الإنسان في حربكم على فيتنام فاستشاط غيضاً، لسد ذرائعه الأكاديمية بذلت جهداً مضاعفاً في إعداد التقرير المطلوب، لكن حقده كان طاغياً، فقبل نهاية الفصل كلمني على انفراد قائلاً بأنه سيمنحني درجة سبعين أو تسعة وستين، لمواد الدراسات العليا السبعون هي درجة النجاح الدنيا، وكما توقعت كانت الدرجة تسع وستين، ومع ذلك فرحت بها، أليست هي جامعة أمريكية وتكره من يكره أمريكا وسياساتها؟

أخبرني قاسم بمقتل زميل من جَنُوب لبنان. معرفتي به قصيرة. دعانا من قبل إلى شقته القريبة من شارع شاطيء البحر، مقابلها مبنى

السكن الداخلي لمدرسة أبناء الدبلوماسيين والأجانب. وقف خلف النافذة وصار يخاطب الفتيات طالبات الثانوي بالإشارات، هو يؤشر بيديه وهن يضحكن، ولا أعرف ما تطور بينهم. تبين أن زميلنا على عِلاقة بامرأة متزوجة، وقتله زوجها أو أحد أقاربها. كمن له أمام بيته وأطلق عليه الرصاص فسقط وقبل لفظ أنفاسه الأخيره سمعوه ينادي على أمه، كان انتقاماً عشائرياً صرفاً لأنه وعلى خلاف الزوجة الخائنة لم يكن محصناً بزواج عن ارتكاب خطيئته.

ذهبنا إلى بيت والده في الجَنُوب لتقديم العزاء، وجدناه جالساً مع كميل شمعون حليفه في السياسة. كرهت سفرة العزاء لأنها أجبرتني على السلام على شمعون. خرجنا لنشاهد أحد طقوس العزاء. كان أتباع والد الفقيد يقذفون بأصابع الديناميت المشتعلة إلى أعلى لتنفجر في الفضاء قبل سقوطها .استعجل قاسم في المغادرة لئلا تقع الديناميت بالقرب منا.

اقتربت ساعة فِرَاقَ الجامعة. بعد الامتحان الشفوي لرسالة الماجستير عن مجلس الإعمار العراقي خرج المشرف عليها الدكتور إيلي سالم العميد والوزير لاحقاً لا ليبارك نجاحي ويتمنى لي التوفيق بل ليقول:

- قررنا التخلص منك!

كانت الشهادة الوحيدة التي حصلت عليها من تلك الجامعة بامتياز كلمة واحدة تضمنها تقريرهم السّرّي، سألهم عم الفتاة التي تقدمت للزواج منها عني فقالوا له بأني "ثوري"، وهل توجد شهادة أحسن منها في كل الأزمنة حتى اليوم؟